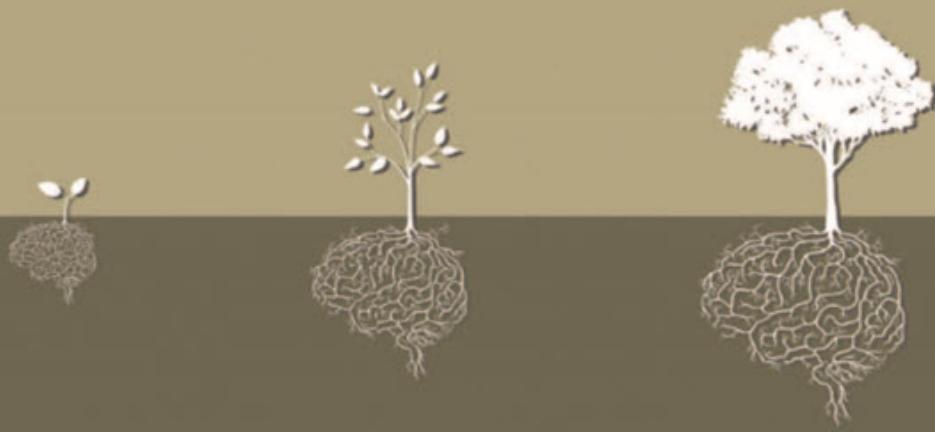


البناء العقدي للجيل الصاعد



أحمد بن يوسف السيد

البناء العقدي
للجيل الصاعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البناء العقدي
للجيل الصاعد
أحمد بن يوسف السيد

حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى

٢٠٢٠ هـ ١٤٤١ م

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب
لا تعبّر بالضرورة عن نظر المركز»



Business Center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith
London W6 9Dx, UK

www.Takween-center.com
info@Takween-center.com

الموزع المعتمد
+966555744843

المملكة العربية السعودية - الدمام

عقيدة المسلم ليست نصوصاً تحفظ،

ولا أقوالاً يجادل بها، وإنما هي إيمان وخشوع

وإختبات، وعمل وفاعلية وحياة، ويقين وطمأنينة ورضا

الكتّاب

الصفحة	الموضوع
١٣	القسم الأول: مقدمات عقدية منهجية مهمة
١٥	أهمية العقيدة وقيمتها وميزات عقيدتنا الإسلامية
٢٥	ما الفائدة المترتبة على وجود العقيدة الصحيحة الثابتة؟
٣١	القسم الثاني: أركان الإيمان وركائزه وبراهينه
٣٣	أركان العقيدة والإيمان - مقدمة
٣٩	أركان الإيمان
٤١	الركن الأول: الإيمان بالله
٤٢	أولاً: وجود الله <small>بِهِ</small> وكماله وربوبيته
٤٨	ثانياً: أسماء الله وصفاته
٥٤	ثالثاً: الألوهية
٥٩	من ثمرات التوحيد: التعلق بالله وحده وعدم التعلق بالخرافات
٦٣	الركن الثاني من أركان الإيمان: الإيمان بالملائكة
٦٩	الركن الثالث من أركان الإيمان: الإيمان بالكتب

القرآن: خاتمة الكتب الإلهية للبشر والمعجزة الْكُبْرَىٰ	٧١
إعجاز القرآن	٧٢
الركن الرابع من أركان الإيمان: الإيمان بالرسل	٧٧
دلائل نبوة النبي ﷺ	٧٩
تنوع وتكامل دلائل النبوة	٨٣
الركن الخامس من أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر	٨٩
القبر: فتنته ونعيمه وعداته	٩٢
النفح في الصور	٩٦
الحوض	٩٩
طلب الشفاعة لبدء الحساب	١٠١
الصراط	١٠٧
دخول الجنة	١١٢
جهنم	١١٦
الركن السادس من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره	١١٩
ثمرات الإيمان بالقدر	١٢١
الاحتجاج بالقدر	١٢٤
القسم الثالث: ما يضاد الإيمان ويناقضه	١٢٧
الأبواب المضادة للإيمان	١٢٩
الكفر والشرك والنفاق	١٣٠
الرياء والعمل لغير الله	١٣٨
الخاتمة	١٤١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،
أما بعد :

فإنه قد ارتبط في أذهان كثير من الطلاب أن العقيدة علم جامد، صعب، نظري بحت، لا يلامس الإيمان، ولا يُغذي الروح، وأنه مليء بأسماء الفرق والطوائف والخلافات التي إنما تهم المتخصصين أو طلاب العلم المتقدمين، بينما كانت العقيدة التي تلقاها الصحابة عن النبي ﷺ سهلة، واضحة، متينة، راسخة، عذبة، شفافة، وهي على سهولتها ووضوحها: فاعلة حية شمولية تملأ الروح وتغذيها، وتخاطب العقل وتنميته، وتوثر على السلوك والعمل ولا تبقى حبيسة الأذهان، حتى جعلت نفوسهم كالجبال ثباتاً، وكالشمس ضياءً، وكالسهم سداداً.

وتشتد الحاجة -اليوم- إلى تثبيت العقيدة الإسلامية الصافية الواضحة في نفوس الجيل الصاعد، وغرس قواعد الإسلام الكبير وأصوله في عقولهم وقلوبهم؛ لما لا يخفى على أحد من واقع التحديات الهائلة التي تهدد إيمانهم وأفكارهم، والشبهات التي تنبئ لهم من كل مكان، والشهوات والفتن الداعية إلى الانحلال والانحطاط.

ونحن إذا اعتنينا ببناء العلم الصحيح المبرهن -وخاصة أصول العقيدة- فإن هذا بحد ذاته يزاحم التصورات والأفكار الفاسدة ولو لم يتم الرد على جميع تفاصيلها، فإن الحق التام يُزهق الباطل، والصواب يقضي على الخطأ، وإذا ثبتت عَظمة الإسلام ومتانة عقيدته لدى الشاب فإن من الصعب أن تؤثر عليه شبهة جزئية، أو أن تقضي على إيمانه فكرة باطلة، أو نزوة عابرة.

هذا؛ وقد كان من أجمل ما جمعني من مجالس العلم مع أحبابي -طلاب الجيل الصاعد-: دروس «البناء العقدي» والتي تناولتُ فيها مبادئ العقيدة الإسلامية، بطريقة سهلة واضحة مبرهنة، لتشييد الإيمان، وتوضيح قواعده، ولبناء سور واقٍ من الشبهات والانحرافات الفكرية؛ وقد كان لها بفضل الله تعالى أثر حسن وتفاعل مثير^(١).

(١) قام أحد الأساتذة الأفضل بتدريس المادة لطلابه في الجامعة في مادة الثقافة الإسلامية، وأخبرني عن مدى الاستفادة والأهمية التي لمسها، ويركز على أهميتها لعمur طلاب الجامعة. ومما علق في ذهني مما هو مرتبط بالمادة =

فعزمت على كتابة المادة وتحريرها وتنسيقها، وأضفت إليها موضوعات جديدة، وفوائد كثيرة، لم أطرحها في الدروس حتى خرجت بهذا الشكل في هذا الكتاب الذي أسأل الله أن يجعله مباركاً ونافعاً، وأن يتقبله مني.

وهذا الكتاب يأتي ضمن سلسلة كتب بنائية منهجية موجهة إلى الجيل الصاعد: صدر منها كتابان، وهما: (إلى الجيل الصاعد) و(التفكير الناقد للجيل الصاعد) والسلسلة مستمرة بإذن الله تعالى، والمرجو أن تغطي احتياجات لدى المراكز والحلقات والمعاهد المعنية بفتیان الجيل الصاعد وفتیاته.

مع التنبية إلى أن هذه المادة وإن كانت قد جعلت ضمن سلسلة الجيل الصاعد إلا أنها تصلح لمن فوقهم كذلك، وأرجو ألا تحول هذه التسمية دون الاستفادة منها لمن تجاوزوا مرحلة الجيل الصاعد.

= = = = =
أن فتيين عراقيين وهما: حذيفة وعز الدين، وهما من طلاب الجيل الصاعد المميزين - حفظهما الله وثبتهما وأحسن نباتهما - كانت والدتهما قد درسَتهُما المادَة كاملاً (عبر المقاطع المرئية) بعنابة باللغة، فسألتهما عن المادَة وطلبت من أحدهما أن يقوم بعرضها وتلخيص بعض أفكارها - عمره ١٢ سنة - فوجدتُ استحضاراً وحسناً استفادة وتصور لأبواب العقيدة بفضل الله تعالى

هذا وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : مقدمات عقدية منهجية مهمة .

القسم الثاني : أركان الإيمان وركائزه .

القسم الثالث : ما يضاد الإيمان ويناقضه .

وأسأل الله سبحانه أن يبارك في هذه المادة وينفع بها قارئها

ومدرّسها وكتابها إنّه سميع قريب .

القسم الأول

مقدمات عقدية منهجية مهمة

أهمية العقيدة وقيمتها وميزات عقيدتنا الإسلامية

معنى العقيدة:

كلمة العقيدة في أساسها اللغوي تدل على معنى الشد والتوثيق والعقد والإلزام، ولذلك قالوا فيها إنها الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، وأن كل ما عقد الإنسان قلبه عليه فهو عقيدة.

وبناء على ذلك فيمكننا أن نعرف العقيدة الإسلامية بأنها: الإيمان الجازم المؤكد -الذي لا يدخله الشك ولا الريب- بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبكل ما أخبر الله ورسوله عنه من تحليل الحلال وتحريم الحرام وأمور الغيب وأصول الإسلام.

فالإيمان بالجنة والنار من العقيدة «وهو من الإيمان باليوم الآخر»

والإيمان بنبوة نوح ﷺ من العقيدة «وهو من الإيمان بالرسل»

والإيمان بأن جبريل نزل على محمد ﷺ بالوحى، من العقيدة أيضًا «وهو من الإيمان بالملائكة»

● ما الذي يميز العقيدة الإسلامية عن بقية العقائد؟
إذا كان لدى اليهود والنصارى وغيرهم عقيدة، فما الفرق
بين عقائدهم وبين عقيدة أهل الإسلام؟
ولماذا نحن أولى بالحق والصواب منهم؟
هل لأننا ولدنا في بيئه مسلمة فحسب؟!

أم لأن لدينا من الدلائل والبراهين والحجج التي تثبت صحة عقيدتنا مما لا يمتلكونه هم لعقيدتهم؟
الجواب -وبلا شك ولا ريب- هو: لأننا نمتلك من الدلائل والبراهين والحجج التي تثبت صحة عقيدتنا مما لا يمتلكونه هم لعقيدتهم.
حسناً .. فلتذكر -إذا- شيئاً من الفروق التفصيلية التي تبين تميّز عقيدتنا وصحتها على بقية العقائد.

■ الفرق الأول: امتلاك الأدلة الواضحة على صحة (أصول العقيدة) :

إن الأدلة التي يستدل بها المسلمون لإثبات أن الإسلام صحيح لا تقارن أبداً بالأدلة التي يستدل بها اليهود أو النصارى على صحة أديانهم، وإن من أعظم ما يفتخر به المسلمون أنه بإمكانهم إثبات الدليل على صحة كل أصل من أصول اعتقادهم دون أن يستطيع الآخرون ذلك، فعلى سبيل المثال:

نحن نعلم أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام، وأن الإنجيل هو كتاب النصارى، وأن التوراة هي كتاب اليهود، فالذى يميز كتابنا (القرآن) عن سائر الكتب السماوية الأخرى هو أن إثبات نسبته «كاما بـكل سوره وآياته» إلى محمد ﷺ تم عن طريق التواتر المتصل، أي أنه نُقل ليس عن طريق واحد عن واحد، بل عن جمادات كثيرة عن جمادات كثيرة عن مثلهم، بسند متصل إلى النبي ﷺ.

بينما لا تمتلك الديانات الأخرى هذه الوسيلة لإثبات نسبة كتبهم إلى أنبيائهم، بل يوجد انقطاع كبير في الإسناد والاتصال، ومن أراد الاستزادة في هذا الباب فيمكنه الرجوع إلى كتاب متخصص في مخطوطات كتب النصارى وهو كتاب «استعادة النص الأصلي للعهد الجديد» للدكتور سامي عامري^(١)، ويمكن

(١) الكتاب علمي متخصص بفائد من يمكنه قراءة الكتب العلمية المتقدمة وليس المبتدئ

كذلك متابعة الدكتور منقذ السقار الذي يذكر دائمًا في محاضراته الدلائل الكثيرة على عدم صحة كتب الأديان الأخرى^١.

ثم بعد ذلك نحن نمتلك الأدلة الواضحة على أن القرآن لم يأت به النبي ﷺ من عنده، وإنما أتى به من عند الله تعالى بواسطة جبريل، وسيأتي التفصيل في ذلك في ثانياً هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

فهذا هو الفرق الأول وهو امتلاك الدلائل على صحة أصول الإسلام.

■ الفرق الثاني: البرهان الذاتي «أي: مضمون القرآن ودلالته على صحة الإسلام» بعكس الكتب الأخرى:

كتب الدكتور محمد عبد الله دراز كتاباً في غاية الروعة والجمال، عنوانه (النَّبِيُّ الْعَظِيمُ) وهدفه أن يشرح لماذا القرآن كلام الله وليس كلام البشر؟ وما الدليل على أنه لا يمكن أن يكون بشر قد أتى به؟ بطبيعة الحال قد ذكر أدلة كثيرة جدًا متعلقة بشخص النبي ﷺ، وأنه لا يمكن أن يكذب، وهو كلام جميل أدعوكم جميعاً للرجوع إليه، ولكن الذي يعنينا في هذه النقطة أنه استدل على صحة القرآن من مضمونه، بغض النظر عن الدلائل الأخرى^١ التي تثبت صدق النبي ﷺ، ومما قال في ذلك: «هذا الكتاب الكريم يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر، وينادي بلسان حاله أنه رسالة القضاء والقدر، حتى إنه لو وجد ملقًى في

صحراء لأيقن الناظر فيه أن ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومبهظه^(١). ثم أخذ يفصل الأدلة التي تستدل بها من بلاغة القرآن على أنه خارج قدرة البشر، وحين تقرأ له يقشعر جلده من الدلائل والبيانات والبراهين.

وإذا كان الدكتور دراز قد ركز على الجانب البلاغي، فإن دلالة القرآن من جهة مضمونه على أنه رباني المصدر كثيرة ليست منحصرة في الجانب البلاغي، بينما إذا اطلعت على مضمamins كتب الديانات الأخرى فستجد أشياء غريبة مستنكرة تدل على أن هناك تحريفاً طال شيئاً منها، مع العلم بأننا نؤمن أن الله أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى ﷺ ولكننا نعتقد كذلك بأنهما قد حرفَا، والأدلة على تحريفهما كثيرة جداً، وقد استدل علماء المسلمين قديماً على تحريف كتب اليهود والنصارى من خلال دراسة النص نفسه وإثبات الإشكالات الموجودة فيه، سواء من جهة سوء الحديث عن الله تعالى أو من جهة الطعن في أنبيائه وتشويههم أو من جهة الأخطاء التاريخية، وغير ذلك، ومن أبرز العلماء المتقدمين الذين تناولوا هذا الموضوع: الإمام ابن حزم رحمة الله تعالى في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والتحلل) وقد كتب الشيخ رحمة الله الهندي كتاباً كبيراً في ذلك سماه (إظهار الحق) وهو كنز كبير في الرد على النصارى، وربما

(١) النبأ العظيم. ص ١٠٦

لا يعلم الكثير من القراء أن الشيخ أحمد ديدات سلك طريقه في محاورة النصارى بعد أن قرأ كتاب إظهار الحق للهندي عليه رحمة الله.

ومن الكتب المعاصرة في ذلك، كتاب: «هل العهد الجديد كلمة الله؟» للدكتور منقذ السقار.

مثال على التناقض: هناك موضعان في الكتاب المقدس -الذي يجمع التوراة والإنجيل- يتكلمان عن رجل واحد -واسمها (آخرِيَا)- بمعلومتين مختلفتين متناقضتين؛ الموضع الأول فيه: أن عمر هذا الرجل اثنتان وعشرون سنة^(١)، والموضع الثاني عن نفس الرجل وعلى نفس الحدث، وفيه أن «عمره اثنتان وأربعون سنة»^(٢) وهذا تناقض غير محتمل، ومن أشهر الأقوال عند النصارى في حل هذه المشكلة هو أن الناسخ أخطأً وهو يكتب في أحد الموضوعين، هكذا بكل بساطة! أنا لا أتحدث عن طبعة معينة فيها هذا الخطأ، وإنما في الأصل.

تخيل أن يحصل عندنا مثله في القرآن فنقول: الصحابة وهم يكتبون المصحف غلطوا في كتابة الآية الأولى ولم يكتبواها بشكل صحيح! هل ستشق في القرآن؟!

(١) سفر الملوك الثاني (٨: ٢٦) «وَكَانَ أَخْرِيَاً أَبْنَى اثْتَنْيَانِ وَعَشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ سَنَةً وَاحِدَةً فِي أُورُشَلَيمَ، وَاسْمُ أُمِّهِ عَائِلَيَا بِنْتُ عُمَرِي مَلِكُ إِسْرَائِيلَ»

(٢) سفر أخبار الأيام الثاني (٢: ٢) «كَانَ أَخْرِيَاً أَبْنَى اثْتَنْيَانِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ سَنَةً وَاحِدَةً فِي أُورُشَلَيمَ، وَاسْمُ أُمِّهِ عَائِلَيَا بِنْتُ عُمَرِي».

■ الفرق الثالث: وضوح العقيدة وموافقتها للعقل والفطرة:

حين يؤمن النصراني بأن الله ثلاثة وواحد في نفس الوقت! فإن هذا أمر لا يمكن تصديقه إلا بإكراه العقل على قبول المستحيل! وحين يقول اليهودي إن الله واحد ولكن صفاته منافية للألوهية كما نجد في كتابهم أن الله تعالى أخذ يبحث عن آدم ﷺ بعد أن اختبأ في الجنة حين أكل من الشجرة!! وينادي عليه أين أنت يا آدم!^(١) - تعالى الله عن ذلك- فإن هذا يدل كذلك على تحريف كتابهم.

ولكن .. حين تسأل عن صفات الله في القرآن فستجد الشفاء والعظمة والكمال، تجد الوضوح والبهاء والجمال، اقرأ

معي :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقَيُومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ لَا يُعْجِزُونَ إِنَّمَا يُنَعَّى مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسَعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمْ وَهُوَ أَعَلُّ الْعَظِيمِ﴾

وهذه من سمات العقيدة الإسلامية وخصائصها؛ أنها عقيدة واضحة فطرية تجعلك تعظم هذا الدين وتطمئن إليه، وقد ذكرت في كتابي (محاسن الإسلام) شيئاً يخص هذا الموضوع، قلت فيه: «لا يوجد تراث لأمةٍ من الأمم المتدينَة فيه تعظيمٌ للإله

(١) سِفْر التكوين (٣: ٩)

الخالق سبحانه وتنزيه له عن النقصان وعمما لا ينبغي أن يكون عليه، كما يوجد في القرآن الكريم وفيما صحّ عن النبي محمد ﷺ من الأحاديث.

ولذلك فإن الإسلام قد تميّز على سائر الديانات بوضوح العقيدة في (الإله) من جهة الكمالات المتعلقة به، ولذا فإن العقل لا يجد تكلفاً في قبول الاعتقاد الإسلامي في الله سبحانه، بخلاف الخرافات والأساطير الموجودة في تصوّرات كثيرة من البشر تجاه الإله، وهذه القضية من أظهر القضايا في دين الإسلام، والاستدلال عليها لا يحتاج إلى كبير عناء، فالقرآن من أوله إلى آخره تمجيدٌ وتعظيمٌ وتنزيهٌ لله تعالى، والسورة التي أخبر النبي ﷺ أنها أعظم سورة في القرآن هي السورة التي تبدأ بحمد الله والاعتراف بأنه رب العالمين، وأنه مالك يوم الدين، وتبيّن العلاقة بين المخلوق وبين الخالق بالتعظيم الذي ينبغي للخالق، بأنه لا يُعبد إلا هو، ولا يُستعان إلا به، فهذه أعظم سورة .

وكذلك أعظم آية في القرآن، كلها متعلقة بالإله من أولها إلى آخرها، وهي آية الكرسي، ولا يوجد عند أمّة من الأمم المتدينة تعظيم لالله بمثل ما في آية الكرسي .

ثم إنه قد صح عن النبي ﷺ: أن في القرآن سورة تعدل ثلث القرآن، وهي سورة الإخلاص، وإذا تأمّلت فيها وجدت أن جميع السورة إنما هي تعظيمٌ وتنزيهٌ لله تعالى .

بينما إذا نظرت فيما جاء عن الخالق في سائر الأديان فلن تحتاج إلى كبير جهد لتدرك الفارق بين الإسلام وبين غيره، بل إن المقارنةَ بين الإسلام وغيره في هذا الباب ظالمةً» انتهى^(١).

وأما الإلحاد فهو أولى بالخطأ والتناقض والإشكال ومناقضة الفطرة من الأديان الأخرى، وهل يوجد عاقل يصدق أنّ عقله وُجد بدون خالق؟ فضلاً عن بقية أجزاء جسده، فضلاً عن روحه ومشاعره، فضلاً عن خلاياه وجيناته، فضلاً عن بصمته وبنائه، فضلاً عن بقية البشر والكائنات، فضلاً عن السماوات وال مجرات والنجوم . . . الخ. فالإلحاد في الحقيقة ضرب من الجنون والانتحار العقلي.

(١) محاسن الإسلام (٣٢-٣١)

ما القائدة المترتبة على وجود العقيدة الصحيحة الثابتة؟

هذا السؤال مهم جدًا، ولا بد أن نفهمه جيداً حتى ندرك
نعمة الإسلام، وحتى نفهم أن بأيدينا شيء عظيم فنحرص على
الاستمساك به، وإذا كان هناك من يقرأ هذا الكلام من المشرفين
التربويين أو المعلمين أو الآباء فليُدرِّكوا جيداً أن غرس محسن
العقيدة الإسلامية، وبيان محسن الإسلام بشكل عام = من أهم
ما يمكن أن يُقدّم لهذا الجيل، وهو أولى من المعلومات
التفصيلية، فإذا اجتمع مع بيان المحسن توضيح الأصول العقدية
وتثبيتها فهنا نكون قد بنينا الأسور الوقائية للجيل على خير ما
يمكن أن تُبني بإذنه تعالى.

أولاً: سعادة العبودية لله:

إن أول شيء يُبدأ به في محسن العقيدة الإسلامية أنها
تجعل صاحبها يعيش سعادة العبودية لله تعالى، فإن أجمل شيء

في هذا الوجود هو تذوق لذة التعبد لخالق كل شيء، وهذه اللذة لا تشبهها لذة أخرى أبداً، لا لذة المال ولا لذة الملك ولا لذة الشهوات عموماً، ولذلك قال من قال من عباد المسلمين: (لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف) يقصد ما هم فيه من لذة التعرف على الله والتعبد له، كما قال ابن القيم: (فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى). وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات، أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب. وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه أو نحو هذا من الكلام، وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقاً^(١).

(١) مدارج السالكين (٤٠-٢٣٩) ط: طيبة.

ثانياً: الصبر على مصائب الدنيا وكوارثها ومصاعبها:

حين تكون حدود الإنسان ضيقة؛ لأن يكون كل هدفه في الحياة اكتساب المال أو البقاء مع حبيب، فإنه إذا أصيب بمصيبة متعلقة بالمال أو الحبيب فإنه سيفقد كل شيء، لأن حدوده متعلقة بأشياء محدودة صغيرة قريبة، فما الذي سيصبره؟ وما الأمل الباقي لديه؟

ولكن حين تكون حدوده عالية سماوية تتطلع إلى عرش الرحمن ومصاحبة الرسول ﷺ في الجنة فإن تأثير المصائب الدنيوية عليه -مهما كان مؤلماً- فسيبيقي محدوداً؛ لأنه لم يفقد كل شيء، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ فَبِهِ وَاللَّهُ يُكَلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ [العناثين: ١١] أي أن الذي يكون عنده إيمان وتوكل وعقيدة فإن الله يهدي قلبه للرضا حين تصيبه المصيبة.

ثالثاً: معرفة النفس والخالق والغاية:

أي أن يعرف الإنسان من هو؟ ومن خالقه؟ ولماذا هو موجود؟ وإلى أين المصير؟

وهذه الأسئلة على أنها بديهية سهلة إلا أنها من أصعب الأسئلة على من لا يمتلك العقيدة، كالملاحد مثلاً .. فهو لا يدرى من هو؟ نعم يعرف أنه إنسان وأن اسمه كذا، ولكن ما الذي يميز الإنسان؟ لماذا يختلف عن بقية الكائنات بالإرادة الحرة

وبالعقل؟ لماذا الإنسان يستطيع الاستفادة مما في الأرض والجو؟
لماذا الحيوانات مسخّرة له؟ لماذا ولماذا؟ لا يستطيع الجواب
بأكثر من أن الإنسان مكون من مجموعة من الخلايا -لطخة
كيميائية- موجود في طرف الكون في كوكب بئس وهو جزء من
الحيوانات ولكنه تطور عنها وصار أرقى منها قليلاً!

حسناً .. ولماذا هو موجود؟ وإلى أين سينتهي؟ وما الذي
ينتظره بعد الموت؟ كل هذا في ظل الإلحاد لا يمكن الجواب عنه
ولا الاهتداء إلى شيء يطمئن النفس فيه، بينما بالعقيدة تستطيع
الجواب والاهتداء إلى ما يطمئن الروح ويريح العقل ويُسكن
النفس.

رابعاً: ضبط الأخلاق:

إن الإنسان الذي يؤمن بإيماناً جازماً بأن الله سيحاسبه على
أفعاله وأفعاله، وسيجازيه على نيته وقصده، فإنه سيضبط
تصرفاته، ويحسب أعماله، ويعرف أين يضع خطواته، بينما يقل
الوازع عند غير المؤمن فلا يحسب تصرفاته كثيراً.

فإذا كان كثير من اللصوص والمجرمين يمارسون جرائمهم
حتى مع وجود القوانين في الدول القوية لأنهم قادرون على تجاوز
القوانين بحيل كثيرة؛ فإن المؤمن الصادق يخاف الله أكثر من
القانون، ويمتنع عن الظلم خشية من خالقه، ويُحسن إلى الناس
رغبة في التقرب إلى ربِّه عز وجل.

انظر وتلتفت حولك لترى كيف يكون الإنسان طائشا مجرما سفاكا حين يمتلك السلاح والقوة ولكن لا يمتلك الإيمان الصحيح. انظر إلى آلة الحرب الغاشمة التي تسحق بنيرانها بيوت الضعفاء وتشرد الملايين، وتعذّم الأطفال دون أدنى ضمير.

ثم انظر إلى من تعرفه من أهل الإيمان والصلاح والخشية، من المستعين بسنة النبي ﷺ، والمستنيرين بنور هديه، المتبعين له، كيف تجدهم؟ كيف ترى صدقهم وإحسانهم ونظافة أيديهم؟ دعك منمن يدعّي الإيمان والصلاح ولا يكون في حقيقة أمره كذلك.

بل انظر إلى نفسك، واسأله سؤالاً صادقاً: لو التزمت بهدي المصطفى ﷺ، وأتيحت لي فرصة أن أنهب مالاً عظيماً دون أن يراني أحد؛ فهل سأقوم بهذا النهب أم سأخاف الله؟ أنت تعلم أن الجواب هو: ما دام أني متبع للنبي، مؤمن برببي، فلا يمكن أن أفعل ذلك.

حسناً: والمملحد؟! ما الذي سيمنعه؟

لو قلت: القانون فكثير منهم قادر على تجاوز القانون والاحتياط عليه.

ولو قلت: الخجل الاجتماعي فهو قادر على التستر والرياء.

ولو قلت: القيم الأخلاقية العامة فالسؤال هو: ما الذي يجعل هذه القيم صحيحة في نظره؟ المجتمع؟ ما الذي يعطي المجتمع قيمة؟

وهكذا يفقد الملحد كل مرجعية لأنه قطع العلاقة بمن يُصفى على كل ذي لونٍ لونه، وعلى كل حقيقة حقيقتها بِنَفْسِهِ.
وتأمل معـي : **﴿أَرَءَيْتَ أَلَّا يُكَذِّبُ بِالْأَيْمَنِ ﴾** فَذَلِكَ
الَّذِي يَدْعُ الْأَيْمَنَ» .

القسم الثاني

أركان الإيمان وركائزه وبراهينه

أركان العقيدة والإيمان

مقدمة

معالم الدين مكونة من ثلث دوائر أساسية، وهي:

- ١ - دائرة الإسلام.
- ٢ - دائرة الإيمان.
- ٣ - دائرة الإحسان.

وهذه الدوائر مستفادة من حديث النبي ﷺ في قصة جبريل المشهورة، وسأذكره ثم أذكر بعض الفوائد منه، ثم أبدأ بعد ذلك بأركان الإيمان مع ركائزها ودلائلها بإذنه تعالى.

نص الحديث:

عَنْ عُمَرَ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدٌ بَيَاضُ الثِّيَابِ، شَدِيدٌ سَوَادُ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثْرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَ الْأَحَدِ». حَتَّى جَلَسَ

إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتِيهِ إِلَى رُكْبَتِيهِ، وَوَضَعَ كَفَيهِ عَلَى فَخِذَائِيهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةُ، وَتُؤْتَى الزَّكَاةُ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحْجَجَ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتُ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَا لَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ حَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَائِنَكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: مَا الْمَسْؤُلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةَ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَّاةَ الْعُرَاءَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَظَاهِرُونَ فِي الْبُنْيَانِ. ثُمَّ انْظَلَقَ، فَلَبِثَ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ أَنْدَرِي مَنْ السَّائِلُ؟ قَلَّتْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ^(١). أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٢).

قال الإمام ابن رجب رحمه الله عن هذا الحديث: (هو حديث عظيم جداً يشتمل على شرح الدين كله ولهذا قال النبي صلوات الله عليه وسلم في آخره: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(٢). وهو حديث يبيّن أسس الإسلام وقواعد العظام بطريقة جميلة، وأسلوب حسن، وحدّث مشوق، وهذا يدل على عناية الإسلام بأسلوب الخطاب،

(١) (٨)

(٢) جامع العلوم والحكم (٩٧/١)

وطرائق التعليم، فقد كان بالإمكان أن تُعرض المعلومات التي في الحديث بأسلوب خطابي عادي، ولكنه حصل بهذا المشهد وتلك القصة والحدث، ليُرسخ في الأذهان، ويثبت في العقول، ويستقر في القلوب.

الإيمان قول وعمل واعتقاد:

هذا الحديث يبيّن أركان الإيمان ومعالم الإسلام وصفة الإحسان، وقد تقرر في عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولكن قد أشكل على بعض الناس أن الإيمان المذكور في الحديث إنما رُبط بالاعتقاد وليس بالعمل، وذلك بقول النبي ﷺ: «أن تؤمن بالله وملائكته . . .» بينما رُبط الإسلام بالعمل، وذلك بقوله: «تقييم الصلاة وتؤتي الزكاة . . .» فهل تدخل الأعمال في الإيمان؟ أم أن الإيمان مجرد اعتقاد؟

وللإجابة عن هذا الاستشكال فلا بد أولاً من النظر إلى مجموع الأدلة القرآنية والنبوية وليس إلى دليل واحد، وهذه من أهم المنهجيات لفهم الشريعة الإسلامية، فإذا نظرنا في أدلة الباب سنتبين لنا أن الأعمال داخلة في الإيمان، وأنه ليس اعتقاداً فقط، وهذه بعض الأدلة على ذلك:

١ - قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا اللَّهُ وَحْلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلَيَّتْ عَلَيْهِمْ أَعْيُنُهُمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا». فـ(يقيمون الصلاة) عمل، والإتفاق عمل.

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإيمان بضع وستون شعبة^(١)، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدنىها إماتة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان»^(٢) فذكر منها إماتة الأذى عن الطريق، وإماتة الأذى: عمل وليس اعتقاداً.

٣- حديث ابن عباس في قصة وفد عبد القيس - وقد أخرجه البخاري ومسلم - وفيه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «أتدركون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخامس»^(٣) فعرف الإيمان في هذا الحديث بأمور عملية مقاربة لما عرف به الإسلام في حديث جبريل.

إذاً، فالأدلة صريحة على أن العمل من الإيمان، فما توجيه الحديث الذي فيه قصة جبريل؟

الجواب: أنه إذا ذكر الإسلام والإيمان في موضع واحد، فإن الإسلام يفسر بالأعمال الظاهرة، والإيمان يفسر بالاعتقاد، وذلك كما في حديث جبريل. وإذا ذكر أحدهما منفرداً فإنه يشمل

(١) وفي رواية - بضع وسبعون شعبة -.

(٢) البخاري (٩) مسلم (٢٥)

(٣) البخاري (٥٣) مسلم (١٧)

الاعتقاد والعمل، فإذا اجتمعوا في موضع واحد افترقا من جهة المعنى، وإذا افترقا في الموضع اجتمعوا من جهة المعنى، وهذا معنى قول العلماء عن الإسلام والإيمان: (إذا اجتمعوا افترقا وإذا افترقا اجتمعوا).

علاقة الكتاب بحديث جبريل:

هذا؛ وإن حديث جبريل مليء بالفوائد وال عبر، ولا يسع المقام في هذا الكتاب للتعليق عليها كلها، ولا على شرح دوائر الدين الثلاثة بالتفصيل، وإنما سأركز على الدائرة الثانية، وهي دائرة الإيمان مع التعرض لشيء مما له علاقة بالدوائر الأخرى. ومن أراد الاستزادة من فوائد الحديث فليرجع إلى كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب / شرح الحديث الثاني. وللمتخصصين يمكنهم مراجعة كتاب (شرح حديث جبريل «الإيمان الأوسط») لابن تيمية رحمة الله تعالى.

لارگان للایمان

الركن الأول الإيمان بالله

الإيمان بالله تعالى هو أصل الأصول، وما يليه من الأركان إنما هو فرع عن الإيمان به ﷺ، فهو الذي أخبرنا بالملائكة والرسل واليوم الآخر والقدر، فبدون الإيمان به لا يمكن الإيمان ببقية الأركان، ولذلك؛ فإن الحديث عن الله تعالى سيكون أطول موضوع في الكتاب، وسأتناوله من عدة جهات:

- ١ - وجود الله وكماله جل جلاله وربوبيته وعظمته.
- ٢ - أسماء الله وصفاته.
- ٣ - ألوهيته سبحانه.

ثم ننتقل إلى الحديث عن بقية الأركان بمشيئة الله تعالى.

أولاً: وجود الله تعالى وكماله وربوبيته:

إن المعرفة بوجود خالق للإنسان لا تتطلب استدلالاً طويلاً، ولا فلسفة معقدة، ولا طرائق مشتبكة، بل إن «إثبات وجود الله تعالى» أمر فطري عقلي قریبٌ لا يجهد العقل في الوصول إليه؛ إذ إنه قائم على مبدأ يجده الإنسان مركوزاً في عقله بحيث لا يمكنه التخلص منه بالبتة، وهو مبدأ: (الاستدلال بالأثر على المؤثر)، بل إن عامة الملحدين الذين ينكرون لوجود الخالق سبحانه يطبقون هذا المبدأ في سائر أمور حياتهم وإن أنكروه في باب الألوهية.

إن البحث فيما وراء الآثار والأفعال والأحداث عن المؤثرين والفاعلين والمُحْدِثين لا يمكن أن يتخلص عنه البشر -مطلقاً- إلا في حالة فقدانهم عقولهم، إذ لا يمكن للبشر أن يتصوروا حدوث الأشياء بعد عدمها دون وجود أسباب لذلك تناسب طبيعة تلك الحوادث^(١) والإنسان هو واحد من هذه الأشياء التي حديثت بعد أن لم يكن شيئاً: ﴿هَلْ أَقَّ عَلَى الْإِنْسَنِ جِينٌ مِّنَ الظَّهَرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ فيستحيل وجوده دون خالق ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَلَقُونَ﴾، هذا إذا نظرنا لمجرد وجوده بعد العدم، فكيف إذا نظرنا إلى إتقانه، وحسن قوامه، ودقائق صنعه، وعجب تكوينه؟ فإنه (كلما كان الأمر الحادث الناشئ أكثر إتقاناً

(١) كامل الصورة، أحمد السيد (١٤)

وتعقيداً اشتدت الضرورة في النفس للبحث عما وراء ذلك الأمر المُحدَث المتقن من السبب الذي يناسب هذا الإتقان والتعقيد، فإن العقل لا يقنع - عند النظر في الأمور الحادثة - بمجرد وجود سبب وراءها، بل لا بد أن يكون السبب مناسباً للصفة التي نشأعليها هذا الأمر الحادث^(١).

فإذا تأمل الإنسان في نفسه فإنه لا يحتاج - عقلاً - إلى دليل آخر على وجود الله تعالى: «وَقَرِئَ أَنفُسُكُمْ أَفَلَا يُبَصِّرُونَ» [الآلـ٢١] مع أن السماوات والأرض فيهما من الآيات ما هو أكبر وأعجب وأعظم من خلق الإنسان، كما قال الله جل جلاله: «لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ حَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْبَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» [العنـ٥٧] وإذا جمع الإنسان بين التأمل في آيات النفس والآفاق فإن هذا يزيده إيماناً ويقيناً: «سَرِيرُهُمْ ءَاءِيَّتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» [فصلـ٥٣]

حين تفكّر في جهاز التخزين للمعلومات: (USB) فإنك تعجب كيف استطاع الإنسان أن يصنع شيئاً صغيراً يمكنه تخزين معلومات هائلة؟ وكلما زاد صغر الجهاز وسعة تخزينه فإن الإنسان يزداد تعجباً ودهشة، ويزداد اعترافاً لصانع الجهاز بالعلم والخبرة والإتقان ولو لم يعرف أسماء المصمّعين ولا الشركة المنتجة.

(١) كامل الصورة، أحمد السيد (١٤-١٥)

حسنا، هل تعلم أن في جسمك أجهزة تخزين معلومات هي أصغر بآلاف المرات من الـ (USB) وفي نفس الوقت تخزن أضعاف المعلومات التي تخزنها تلك الأجهزة التي من صنع البشر؟! اقرأ في علم الأحياء عن الجينات وما تحويه داخلها وما يمكن تخزينه في (DNA) لتعجب وتبعد بحمد الله وتشهد ألا إله إلا هو!

وإذا تأملنا في صناعة الرجل الآلي (الروبوت) فإننا نجد منها ما هو متظور جداً، يحاكي حركات الإنسان، وكلما ازدادت المحاكاة أكثر كان هذا أدل على زيادة علم صانع الروبوت الذي لا يكون في العادة شخصاً واحداً وإنما علماء متعددون كم اختصاصات متنوعة.

حسنا، وماذا عن الإنسان نفسه؟! إذا كان هذا الرجل الآلي - يحاكي بعض حركات الإنسان ويحتاج لكل هذا الجهد والوقت ليخرج بهذه الصورة، فالإنسان نفسه يتطلب قدرة أعظم وعلماً أكبر حتى يمكن أن يوجد، ومن الجنون أن يقال إن المادة الجامدة أو جدته!

فوا عجباً كيف يُعصي الإله
أم كيف يجحده الجاحد؟
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الواحد

ولمن أراد الاستزادة في باب وجود الله وآياته في الإنسان والكون، فليطالع ما يلي:

- كتاب: براهين وجود الله للدكتور سامي عامري.
- وكتاب: الصنع المتقن لمصطفى قدح.
- وكتاب: شموع النهار، لعبد الله العجيري.
- وكتاب: الله يتجلّ في عصر العلم، لمجموعة من المتخصصين الأميركيان في عدد من العلوم الطبيعية.
- وكتاب: الكوكب المميز لغيلبرت غونزاليز وجاي ريتشاردز.
- وكتاب: ستة أرقام فقط، لمارتن ريس، وغيرها الكثير.

دلالة الفطرة على وجود الله:

وبعد ما سبق ذكره من دلالة العقل على وجود الله، فإن لدينا نوعاً آخر من الأدلة التي نستدل بها على وجوده تعالى، إلا وهو: الفطرة؛ فالله تعالى رَكَزَ في الإنسان معنى الافتقار إليه، فهو ينشأ على هذه الفطرة، فطرة الشعور باعترافه بخالقه واحتياجه إليه، وقد ذكرتُ في كتابي سابعات شيئاً من دلالة الفطرة على وجود الله تعالى، سأقله هنا -مختصرًا:-

(تدل الفطرة البشرية على وجود الخالق تعالى من ثلاثة جهات:
الجهة الأولى: أن هناك معارف أولية ضرورية حاصلة لكل البشر، لم يتعلموها في مدرسة، ولم يتلقّوها في جامعة، وإنما

وُلدت معهم، وغُرِّزت في عقولهم؛ كمعرفة أن الحادث لا بد له من مُحَدِّث، وأنَّ الجزء أصغر من الكل، وهذه المعرفات يُستدل بها على وجود الله سبحانه من طريقين:

الطريق الأولى: من جهة النظر والاستدلال، وذلك بأنَّ يُنظر في الكون والإنسان والمخلوقات، فـيُعلَم بأنها حادثة، ثم نستدل بالمعرفة الفطرية القائلة بأنَّ لكل حادث محدث على أنَّ الكون والمخلوقات مُحدِّثاً خالقاً وهو الله تعالى.

الطريق الثانية: أنَّ مُجَرَّد وجود هذه الغرائز المعرفية الفطرية يدلُّ على أنَّ هناك من أودعها في نفس الإنسان؛ لأنَّها لم تحصل عن اكتساب ولا عن تعلم، وهذا دليل على وجود الخالق تعالى.

الجهة الثانية من دلالة الفطرة: ضرورة الافتقار والتعبد، أو الاعتراف النفسي الضروري بال الحاجة إلى الخالق سبحانه؛ إذ إنَّ في فطرة الإنسان افتقار ذاتي إلى قوة غيبية كاملة غنية يرجو منها الإنسان النفع، ويستدفع بها الضر، ويتنزلل لها، وخاصة عند الشدائِد؛ ولذلك تجد أنَّ الأمم كلَّها من قديم الزمان وفي مختلف البلدان لها أماكن للعبادة، حتى عبدوا الشمس والكواكب والنار والأحجار ملتزميين بذلك جلب النفع ودفع الضر، وما ذلك إلا لافتقار الإنسان بطبعته إلى الإله الذي يملأ تطلعات روحه و حاجاته؛ غير أنَّ البيئة التي ينشأ فيها الإنسان قد تساهم في تشویش الغاية الصحيحة، فبدل أن يتوجه للإله الحق، يتوجه إلى آلهة باطلة يُعلَم بالعقل قبل الشرع بُطْلَانَهَا، ولذلك فإنَّ الرسل

حين بعثوا إلى أقوامهم لم يكن محور رسالتهم إثبات وجود الخالق؛ لأن الأمة كانت تقر بذلك في الجملة، وإن كان بعض الناس قد يحتاج إلى تذكير بهذه الحقيقة الفطرية، وإنما كان محور رسالتهم: الدعوة إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، والتخلص من عبادة كلّ ما سواه، ولذلك نجد أسلوب خطاب الرسل عند الحديث عن هذه الحقيقة الفطرية تذكيريًا لا تأسيسياً، كأنه يُحيي الفطرة في النفوس، أو يوقظها، لا أنه يغرسها أو يُبنّيها، فتأمل . مثلاً . قول الله تعالى: ﴿قَالَ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [ابراهيم: ١٠]؟! فهذا أسلوب من يُذكر لا من يؤسس معنى كان مجهولاً .

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله تعالى أن بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته فيحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة^(١) .

الجهة الثالثة: الغرائز والأخلاق، وذلك أننا نرى في الإنسان والحيوان غرائز فطرية غير مكتسبة من المجتمع ولا من البيئة، وإنما هي مما أودع فيه بغير كسب منه، فأنت تشاهد بعض الحيوانات عند ولادتها تتجه مباشرة إلى الضرع باحثة عن اللبن، من غير أن تكون الأم هي التي توجهها إليه، وأنت ترى الرضيع إذا ألقمهت أمه ثديها عرف كيف يمسه ويستخرج اللبن منه،

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٨٩)

وكذلك غريزة ميل الجنسين أحدهما إلى الآخر، وغريزة النكاح، وحب الولد، وغير ذلك من الغرائز الكثيرة جدًا.

ومن الغرائز التي أودعت في الإنسان: القيم الأخلاقية الفاضلة كاستحسان الصدق، والعدل، واستبعاد الظلم والقتل وتعذيب الأطفال، ونحو ذلك. إن وجود الخير في نفس الإنسان لا يمكن أن يفهم في دائرة العببية والعشوائية، وإنما يتم فهمه باتساق وانتظام تحت مظلة الإيمان بوجود الخالق المُدبِّر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الذي خلق النفوس وألهمها فجورها وتقوتها^(١)

وخلال الكلام في الإيمان بوجود الله وكماله أننا نستدل على ذلك بالعقل والفطرة، فالعقل يدلنا على ضرورة وجود خالق له صفات الكمال من خلال التفصيل السابق، والفطرة تدلنا على وجود الخالق أيضاً من الجهات التي سبق بيانها كذلك؛ فاللهم ارزقنا تعظيمك وخشيتك وحسن العمل بالعلم يا رب العالمين .. آمين.

ثانيًا: أسماء الله وصفاته:

تقديم معنا أن الحديث عن الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سيكون تحت ثلاثة عناوين:

- ١ - وجود الله وكماله وربوبيته .
- ٢ - أسماء الله وصفاته .

(١) سابقات (٧٣-٧٠) باختصار

٣- ألوهيته سبحانه وبحمده.

وقد تكلمنا عن العنوان الأول، وها نحن ننتقل إلى العنوان الثاني لنتحدث عن أسماء الله وصفاته، وفي الحقيقة، فإن الحديث عن أسماء الله وصفاته يُعد داخلاً في الحديث عن كمال الله وعظمته، ولكنني أفردتها بعنوان خاص لأنني أريد الإشارة إلى مسائل وتنبيهات متعلقة بالأسماء والصفات بشكل خاص فأفردتها.

معاني الأسماء الحسنة:

إن الحديث عن أسماء الله وصفاته حديث عظيم جميل؛ لأنه يعرّفنا بالله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وإن من المهم لشباب الجيل الصاعد أن يتعرفوا على معاني الأسماء الحسنة، ويحفظوها، ويتأملوا فيها، ليتعبدوا الله تعالى بها، فتزيدهم له حباً، ومنه قرباً.

والله سبحانه أرشدنا إلى أن ندعوه بها فقال: ﴿وَلَوْلَوْ أَلَّا سَمَّأَهُ الْحَسَنَ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ ومن سُبُل إحسان الدعاء بها أن نعرف معانيها، وأن نعرف استعمالات الأنبياء لها، فالأنبياء إذا دعوا الله تعالى فإنهم يدعونه بأسمائه وصفاته، وهم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بطريقة استعمال الأسماء الحسنة في الدعاء، فإذا أردنا أن ندعوا الله دعاء نرجو إجابته فلنتعلم هدي الأنبياء في الدعاء ولتأنس بهم، فإن ذلك مظنة الإجابة.

ولقد كتب كثير من العلماء والدعاة في معاني الأسماء الحسنة، ومن أسهل الكتب في ذلك مما يناسب العجيل الصاعد - وقد قررته على نخبة منهم فأعجبهم جداً: كتاب لأنك الله، للأستاذ علي الفيفي. ومن الكتب المفيدة: النهج الأسماي في شرح أسماء الله الحسنة، لمحمد النجدي.

حفظ الأسماء الحسنة وإحصاؤها:

ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله تسعه وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة» والحديث صحيح أخرجه الإمام البخاري ومسلم في صحيحهما^(١).

قال الإمام النووي رضي الله عنه في كتابه المنهاج - وهو شرح ل الصحيح الإمام مسلم -: (وأما قوله ﷺ: «من أحصاها دخل الجنة» فاختلقو في المراد بإحصائها:

- فقال البخاري وغيره من المحققين: معناه: حفظها، وهذا هو الأظهر؛ لأنه جاء مفسراً في الرواية الأخرى: «من حفظها».
- وقيل: أحصاها: عدتها في الدعاء بها،
- وقيل: أطاقها، أي: أحسن المرااعة لها والمحافظة على ما تقتضيه وصدق بمعانيها...، وهو ضعيف، وال الصحيح الأول»^(٢).

(١) صحيح البخاري (٢٧٣٦) صحيح مسلم (٢٦٧٧)

(٢) المنهاج، النووي (١٧/٥-٦)

ومن العلماء من رجح معنى العمل بمقتضها بالإضافة إلى حفظها. وعلى أية حال فيستحسن حفظ هذه الأسماء لما ورد من الفضل في الحديث المذكور.

تعيين الأسماء الحسنة :

لم يصح عن النبي ﷺ عد الأسماء التسعة والتسعين، وإنما اجتهد العلماء في استخراجها، وأما ما ورد في بعض روايات الحديث عند الترمذى من عد الأسماء ونسبته إلى النبي ﷺ فليس بصحيح، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «تعيينها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه»^(١)

وتتجدر الإشارة هنا إلى أن أسماء الله تعالى ليست محصورة في هذا العدد كما ذكر العلماء، وإنما هذا العدد من شأنه أن من أحصاه دخل الجنة، فقد ثبت أن النبي ﷺ حين يأتي يوم القيمة مستشفعاً إلى ربه فإنه يحمد الله بمحامد لم يفتح فيها على أحد من قبله، قال الإمام النووي رحمه الله تعالى (واتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه ﷺ)، فليس معناه: أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء، ولهذا جاء

(١) الفتاوی ٣٨٣/٦

في الحديث الآخر: «أسألك بكل اسم سميته به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندي»^(١).

الاختلاف بين المذاهب في تأويل الأسماء والصفات:

ها هنا ملاحظة في غاية الأهمية، ألا وهي أن الكلام في الأسماء والصفات قد أخذ منحى جدلياً عند كثير من الطوائف في التاريخ الإسلامي بتأثير من ثقافات وعلوم أخرى خارجة عن الصفاء الإسلامي بعد أن تمت ترجمة الفلسفة والثقافة اليونانية على وقت المؤمنون - الخليفة العباسي -، فصار أول ما يقفز في الذهن إذا ذُكر باب الأسماء الحسنة هو الخلافات العقدية الجدلية الواقعة في هذا الباب بين الطوائف الإسلامية، وهذا بلاشك خلاف المقصد الشرعي الذي لأجله ذكر الله أسماءه وصفاته في كتابه العزيز. ونحن إذا رجعنا إلى وقت النبي ﷺ وأصحابه نرى أنهم لم يتعاملوا مع الأسماء والصفات بغير مبدأ التعظيم والتسليم، ولم يضعوا قوانين معارضة للنصوص، سواء سُميت قوانين عقلية أو غير ذلك. وإنما تعاملوا مع هذه النصوص كما يتعاملون مع سائر نصوص القرآن الكريم الواردة في الأحكام والتشريعات والأخبار، فلم يكونوا يتكللوفون في معانيها أشياء غير ما يدل عليه كلام العرب، ولم يقولوا إن نصوص الصفات الإلهية من المتشابه الذي لا يُفهم، ولم يقولوا إننا نحتاج أن نأتي بمعان

(١) المنهاج، النووي، شرح الحديث رقم (٢٦٧٧)

خفية لنفسها ظاهر الآيات، وذلك أنهم يعلمون أن القرآن بيان للناس، وأنه جاء ليعرفهم بحالاتهم، وليس ليضع الألغاز والأحاجيات في العقيدة ليأتي المتأخرون فيحاولون حلها.

ويقولون كذلك إن الرسول ﷺ جاء مبيناً للقرآن، مفسراً له، شارحاً للناس ما يريد الله منهم، وهو في نفس الوقت حريص على المؤمنين، يريد هدايتهم وإرشادهم وتعليمهم، مع امتلاكه لأدوات البيان والقدرة على إيصال الحق، فلو كان يريد منا أن نتعامل مع نصوص الأسماء والصفات بطريقة تأويلية خاصة لآرشننا إلى ذلك، خاصة وأن نصوص الصفات كثيرة جداً في القرآن الكريم.

فإذا جاء في القرآن -مثلاً- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّبِينَ﴾ فنحن نفهم من هذا النص ما فهمه الصحابة وبليغوه، وهو إثبات المحبة لله، وأنها محبة تليق بجلاله لأنه سبحانه لا يشبهه شيء، وهذا هو المعنى العربي الواضح الموافق للشريعة.

بينما نجد أن بعض الفرق والطوائف وقفت من هذا النص وأمثاله موقفاً متتكلفاً جداً، فقالوا: «المحبة؟! المحبة لا يمكن أن تنسابها إلى الله كصفة، لأنها ميل القلب إلى المحبوب، وهذا لا يليق بالله! فنؤولها إلى غير ذلك» وتجدهم في نفس الوقت يثبتون لله صفة الإرادة! ويقولون: «ثبتت إرادةً لا تشبه إرادة المخلوقين، ونحن نقول لهم: كذلك محبة الله لا تشبه محبة المخلوقين، فلا نقول فيها غير ما قال الله فيها بدلاله اللسان

العربي، فالله يحب التوابين، فمن كان تواباً أحبه الله، والمحبة معروفة لا تحتاج إلى تفسيرات متكلفة للتنفيذ من التصديق بها! وهكذا في بقية نصوص الأسماء والصفات، مع الاعتراف الدائم بأننا لا ندرك كيفية هذه الأسماء والصفات في حق الله تعالى، لأن الله أعظم من أن يحيط أحد بحقيقة ذاته أو حقيقة أسمائه وصفاته، ومع الاعتراف الدائم بأن إثبات الصفات لله محكوم بقانون ذكره الله في القرآن وهو ﴿لَيْسَ كُمِثْلُهُ شَيْءٌ﴾ فالله سبحانه يسمع وبصر ويتكلم ولها صفات الجلال، ولا يشبه شيئاً من خلقه جل في علاه، وأما الذي لا يسمع ولا يبصر فهو إله المشركين وليس رب العالمين، ألم يقل إبراهيم ﷺ: ﴿يَتَابُتْ لِمَ تَبَدُّلُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبَصِّرُ وَلَا يُعْنِي عَنَكَ شَيْئًا﴾؟

ثالثاً: الألوهية:

تقدمنا أن الحديث عن الله ﷺ يتضمن ثلاثة عناوين:

- وجود الله وكماله وربوبيته .
- أسماء الله وصفاته .
- ألوهيته سبحانه وبحمده .

والمقصود بالألوهية هنا أي إفراد الله تعالى بالتعبد، بألا يعبد إلا هو، ولا يُسجد إلا له، ولا يستغاث إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، فإذا كان توحيد الربوبية هو إفراد الله تعالى بالملك والخلق والتدبير؛ فإن توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بالعبادة،

وهو متمحور حول كلمة (لا إله إلا الله) وهي أعظم كلمة في هذا الوجود، ومعناها أنه لا يوجد أحد يستحق العبادة إلا الله وحده.

والقرآن الكريم يعزز معنى توحيد الألوهية في النفس عبر التأكيد على توحيد الربوبية، أي أننا إذا اعترفنا أن الله هو الخالق وحده لا شريك له فهذا يستلزم إلى أنه لا ينبغي أن يعبد إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونَ﴾ ونرى في الآية تلازمًا بين الربوبية والعبودية.

ضرورة فهم معنى التعبد في الإسلام:

إن العبادة في الإسلام ليست مجرد رکوع وسجود وإمساك عن الطعام، بل العبادة في حقيقتها محبة وذل وانقياد لله تعالى، العبادة في حقيقتها: تسلیم للخالق، واستعداد لقبول واتباع كلما يأمر به، ومن جملة ذلك: الصلاة والزكاة والصيام والحج. ولا شك أن هذه العبادات العملية عظيمة ومهمة، بل هذه الأمور المذكورة هي أركان الإسلام، ولكنها لا تُقبل ولا تنفع إذا لم يصاحبها إخلاص قلبي لله تعالى، فأصل العبادة الذي تنشأ عنه الأعمال الظاهرة هو الاعتراف القلبي والانقياد الباطني والتسليم لله تعالى.

ومن أهم صور العبادة لله تعالى: الحُب.

حب الخالق العظيم، حبه لكماله وجلاله وجماله، وحبه لربوبيته وعظمته، وحبه لإنعماته علينا، وحبه لإرساله الرسل إلينا

وبيان الغاية من وجودنا، وكلما ازداد العبد محبة لربه، طاب قلبه به واستغنى به عن غيره وذاق لذة الإيمان .. تلك اللذة التي لا تعدلها لذة.

وقد نقلتُ في كتابي -محاسن الإسلام- تجربة للشيخ فريد الأنصاري يحكي فيها عن هذه اللذة العجيبة التي وجدتها حين فهم حقيقة التعبد لله، وقبلها ذكرتُ مقدمة في هذا المعنى، وهذا نص الكلام^(١):

(إن للعبودية في الإسلام جمالاً يوقف الإنسان على شاطئ الكون مندهشاً بأنوار الحقائق الكبرى التي تنفتح له، وإن عدم تذوق جمالية التعبد والخصوص والمحبة لله سبحانه لمن أكبر أسباب التأثر بالشبهات المثارة ضد وجوده وكماله سبحانه، ومن ثم الوصول إلى الإلحاد والإنكار.

وها هنا تجربة فريدة في هذا المجال لعالم فريد كاسمه، وهو الشيخ: فريد الأنصاري يحكي في كتابه (جمالية الدين) استعرض فيها مراحل فهمه للتدين والتعبد، وكيف أنها بدأت بالتصور المختصر، ثم انتقل إلى إدراك بعض المفاهيم الحركية الإسلامية والدفاع عنها، ومع ذلك يقول إنه لم يصل إلى اللذة الحقيقة للإيمان حتى أوقفه أحد مشايخه وأساتذته على حقيقة معنى الإله والتأله، يقول «بدأت المراجعة في حياتي كلية،

(١) (٢١-٢٢)

واكتشفتُ حقيقة أن هناك شيئاً اسمه (حلوة الإيمان)، ذوقاً لا تصوراً، وحقيقة لا تخيلًا! ثم بدأتُ أعود إلى القرآن، فوجدتُ أني كنتُ بعيداً جداً عن بشاشته وجماله، وببدأتُ أعود إلى السنة، فوجدتُ أني كنتُ أجهلَ الناسِ بأخلاق محمد عليه الصلاة والسلام، وببدأتُ أراجع ما قرأته عن العقيدة، فوجدتُ صفحات مشرقة مما كتب السلف الصالح قد مررتُ عليها مرور الأعمى -لا مرور الكرام- بسبب ما غطّي بصري من فهوم سابقة، حتى كأني لم أقرأ قط!

قلت: لم تكن مفاجأتي علمية بقدر ما كانت وجданية، لقد كنتُ أقرأ عبارات (المحبة والشوق والخوف والرجاء) ولكن دون أن أجده لها شيئاً من نبض الحياة بقلبي^(١).

لقد بين د. فريد كاظم في كلامه بأنه لا يتهم المفاهيم التي كان عليها سابقاً، وإنما يقول إن ظروف التلقى كانت سيئة للغاية، ولكيلا يكون الأمر غامضاً، فسانقل لكم كلامه في شرح مفهوم الإله والتأله والتعبد، يقول:

«كلمة (إله) في أصل استعمالها اللغوی كلمة قلبية وجدانية، أعني أنها لفظ من الألفاظ الدالة على أحوال القلب، كالحب والبغض والفرح والحزن والأسى والشوق والرغبة ... الخ. أصلها قول العرب: (أله الفصيلُ يأله ألهًا) إذا ناح شوقاً إلى أمه.

(١) جمالية الدين، معارج القلب إلى حياة الروح، لفريد الأنصارى (٤٠).

والفصيل: ابن الناقة إذا فُطِم وفُصِل عن الرضاعة، يُحبس في الخيمة وتُترك أمه في المرعى حتى إذا طال به الحال ذكر أمه وأخذه الشوق والحنين إليها وهو آئذٌ حديث عهْد بالفطام، فناح وأرْغَى رُغَاءً أشبه ما يكون بالبكاء، فيقولون: (أَلِهٌ الفصيل)، فأمه إذن هنا هي (إِلَهُه) بالمعنى اللغوي، أي: ما يشُوّقه. ومنه قول الشاعر: أَلْهَت إِلَيْهَا وَالرَّكَائِبُ وُقَّفَ^(١).

ثم يقول: «وهكذا فأنـت ترى أن مدار المادتين (أَلِهٌ) و(وَلِهٌ) هو على معانٍ قلبية ترجع في مجملها إلى التعلق الوجوداني والامتلاء بالحب، فيكونُ قول المؤمن: (لا إِلَه إِلا الله) تعبيراً عمّا يجده في قلبه من تعلقٍ بربه تعالى، أي لا محظوظ إلا الله، ولا مرهوب إلا الله، ولا يملا عليه عمارة قلبه إلا قصد الله. إنه أشبه ما يكون بذلك الفصيل الصغير، الذي ناح شوقاً إلى أمه إذ أحسَّ بألم الفراق ووحشة البُعد، إنَّ المسلم إذ يشهد ألا إله إلا الله، يُقرُّ شاهداً على قلبه أنه لا يتعلّق إلا بالله، رغبةً ورهبةً وشوقاً ومحبةً. وتلك لعمرى شهادة عظيمة وخطيرة، لأنها إقرارٌ واعترافٌ بشعور، لا يدرى أحدٌ مصدق ما فيه من الصدق إلا الله، ثم الشاهد نفسه. ومعانى القلب لا تُحدّ بعبارات، ولا تحصرها إشارات. ومن هنا كانت شهادة ألا إله إلا الله من

(١) المرجع السابق (٣٤).

اللطفة بمكان، بحيث لا تدرك على تمام حقيقتها إلا ذوقاً^(١)) انتهى النقل عن محسن الإسلام.

والنظر إلى العقيدة بهذا الاعتبار يجعلها حية فاعلة، تماماً القلب فتفيض على الجوارح، تجعل الإنسان يستقيم في أفعاله وأقواله، فهو معظم للرب مستسلم له ممتليء ذلاً ومحبة له، ثم هو مع ذلك ملتزم بالأعمال التي شرعها الله على عباده، من الصلاة والزكاة ورحمة الناس والإحسان إلى الفقراء وبر الوالدين والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هكذا تكون العقيدة حية فاعلة، شاملة لشؤون الحياة، غير محبوسة في جدران المسجد فإذا خرج المصلي منه نزع قيمه ومبادئه!

من ثراث التوحيد: التعلق بالله وحده وعدم التعلق بالخرافات:
إذا آمن الإنسان بأن الله هو الخالق المالك المدبر،
المتصف بكل صفات العزة والكمال والعظمة، ثم آمن به إلهًا واحدًا لا يستحق العبادة إلا هو فإن هذا يدفعه إلى عدم التعلق بالبشر، سواء أكانوا أحياء أم أمواتا، فالله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هو القادر على إغاثة الملهوف وإجابة سؤال السائلين، فالتوجه بالدعاء لغير الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إنما هو ضعف في الاعتراف بقدرة الله ورحمته وقربه من عباده، والذين يدعون من دونه إنما هم عباد أمثالنا لا يملكون النفع ولا الضر، وبذلك نعلم حجم الظلم الذي يقع

(١) المرجع السابق (٣٥، ٣٦).

فيه من تنزل بهم الكربات والشدائد ثم يتوجهون للأموات في قصائهما بدلاً من أن يتوجهوا لله في رفعها -منادين بأسمائهم مستغيثين بهم قائلين: يا حسين! يا علي! يا عبد القادر! الخ.

وهل الله تعالى لا يسمع الإنسان؟ وهل جعل الله لأحد من عباده صلاحية سماع كل ما في الكون والقدرة على إجابة كل السائلين؟! سبحانه الله تعالى عما يصف الواصفون.

ويُستثنى من ذلك ما لو استغاث الإنسان أو استعان بإنسان حي قادر يسمع الصوت ويكون مستطينا لفعل شيء، وذلك ضمن دائرة الأسباب المعروفة كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِنْ بِهِ الَّذِيٌّ مِنْ شَيْءٍ عَلَى الَّذِيٌّ مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥] استغاثة: طلب أن يغيثه. لماذا؟ لأنَّه موجود في نفس المكان، وهو قادر على إغاثته فلا مانع حينئذ من طلب السبب منه.

ومن علامات ضعف العقيدة والإيمان في القلب: التعلق في جلب النفع ودفع الضر بأسباء لم يجعلها الله تعالى أسباباً لذلك، مثل تعليق مجسمات عليها صورة عين في البيوت والمحلات التجارية لدفع العين، أو تعليق التمام (مثل القلادة) على الرقبة للحماية والوقاية، وهذا من الشرك -إلا إذا كانت من القرآن ففيها خلاف والأفضل اجتنابها-. وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده^(١) عن عقبة بن عامر الجهمي عليه السلام أنَّ رسول الله ﷺ قبل إليه رهط،

(١) (١٧٤٢٢)

فبایع تسعه، وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله، بایعْت تسعه، وتركت هذا؟ قال: «إن عليه تميمة». فأدخل يده، فقطعها، فبایعه، وقال: «من علق تميمة فقد أشرك».

ومن علامات ضعف العقيدة والإيمان في القلب: الحلف بغير الله تعالى، فإن هذا منافٍ لتمام التعظيم لله تعالى، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ألا من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله». فكانت قريش تحلف بآبائهما، فقال: «لا تحلفوا بآبائكم»^(١). فهذا كلامٌ واضحٌ صريحٌ من النبي ﷺ في أنه لا يجوز للمسلم أن يحلف إلا بالله تعالى وحده. فلا يجوز الحلف بالشرف أو العرض أو الحياة أو السيف أو العلم أو الأمانة أو النبي والصالحين.

(١) صحيح مسلم (٣٨٣٦)

الركن الثاني من أركان الإيمان الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، وهو من جملة الإيمان بالغيب؛ لأن الإيمان بالغيب يدخل فيه كل ما يغيب عن الإنسان رؤيته، ومن ذلك (الملائكة).

وقد امتدح الله تعالى المؤمنين بالغيب فقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَبُ
لَا رَبِّ لِفِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. والإيمان بالغيب مبني على مقدمات وأدلة قطعية تقول: إن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض، وهو يعلم الأشياء التي خلقها مما غاب عنا رؤيته ومشاهدته، ولذلك أخبر سبحانه عن نفسه بأنه ﴿عَلِمَ الْغَيْبَ وَالشَّهَدَةَ﴾ ثم أخبرنا عن طريق رُسله بأمور من الغيب الذي غاب عنه ملاحظته بالحس، واستأثر بأمور من الغيب لم يُخبر بها أحداً، مثل موعد قيام الساعة.

فإذن: نحن نؤمن بالملائكة لأننا آمنا بالله ﷺ، وقد أخذنا سابقاً الأدلة التي ثبت لنا وجود الله وعظمته، وسيأتينا أيضاً فيما يلي: «الأدلة والبراهين على صدق النبي ﷺ وأنه رسول من عند الله» حتى نعلم أن ما يخبرنا به فإنه حق. هكذا تكون معرفتك ناضجة ومُرتبة ومنهجية.

من هم الملائكة وما صفاتهم؟

هم خلق من خلق الله وجُند من جنوده، كثير عدهم، لا يحصيهم إلا هو سبحانه، مخلوقون من نور، لهم وظائف كثيرة كلفهم الله بها، وهم يسبحون بالليل والنهار ويواصلون التعبد بلا فتور.

قال جل جلاله: ﴿وَلَهُ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكِبُرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾١٩﴿ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَنْتَرُونَ﴾ [الإِنْجِيلُ: ٢٠-١٩] و قال جل جلاله: ﴿وَقَالُوا أَنْخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادًا مُّكَرْمَوْنَ﴾ [الإِنْجِيلُ: ٢٦] و قال جل جلاله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ حِمْدَ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَسَعْفَرُونَ لِلَّذِينَ أَمَنُوا رَبِّنَا وَسَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَأَغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِيمُهُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [عَكْلٌ: ٧]

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق العجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(١)

(١) (٢٩٩٦)

● من صفاتهم الخلقية:

- أنهم مخلوقون من نور - كما تقدم -
- أن لهم أجنحة متفاوتة العدد، فمنهم من له جناحان ومنهم أكثر من ذلك، قال الله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَئِنَّ أَجْيَحُوهُ مَشَنَّ وَثَلَاثَ وَرَبِيعَ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إن النبي ﷺ رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح ^(١)
- أنهم لا يأكلون ولا يشربون، كما في قصة مجيء الملائكة إلى النبي الله إبراهيم عليه السلام، وفيها : ﴿فَمَا رَأَءَ آيُّهُمْ لَا تَصِلُّ إِلَيْهِ نَكَرُهُمْ وَأَوْجَسْ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسَلَنَا إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ﴾.

● ما وظائف الملائكة؟

الملائكة لهم وظائف كثيرة جداً، وترتبطهم بالمؤمنين من البشر علاقة محبة واهتمام، فمن وظائفهم :

- الاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم، كما قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْسَ وَمَنْ حَوَّلَهُ يُسَيِّحُونَ بِمُحَمَّدٍ رَّهِيمٍ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُوا رَبَّنَا وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعَلَمَا فَأَعْفَرَ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَفِيهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٧)

٢ - ومنهم ملائكة يتبعون مجالس الذكر ويحضرونها ويترافقون عليها ويتنادون، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلا يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم، وحفّ بعضهم بعضا بأجنبتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا»^(١).

٣ - ومنهم ملائكة يحضرون صلاة المسلمين ويشهدونها فيؤمنون مع الإمام ويستمعون القرآن ويُسجلون الداخلين إلى الجمعة، فقد قال الله تعالى: «إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» أي بالملائكة. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢) وثبتت عنه أحاديث أخرى في شهود الملائكة لصلاة المؤمنين لا نطيل المقام بذكرها.

٤ - ومن وظائف الملائكة: نصرة المؤمنين وتأييدهم، فالرسول ﷺ حين أغضبه قومه، وانطلق وهو مهموم على وجهه من مكة حتى وصل إلى منطقة قرن الشعلاب؛ أتاه جبريل عليه السلام وقال: «إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم»^(٣) وقد قال الله

(١) صحيح مسلم (٢٦٨٩)

(٢) البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٣٢٣١)

تعالى في سورة المدثر بعد أن ذكر الملائكة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودُ رَبِّكَ إِلَّا
هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] ومن هؤلاء الجنود من أنزلهم الله في نصرة
المؤمنين في معركة بدر، حيث قال سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبَّكُمْ
فَاسْتَجِابَ لَكُمْ أَنَّى مُيَدِّكُمْ بِالْفِيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾
[الأنفال: ٩].

٥ - ومن الملائكة من هو موكل بإنزال الوحي من الله إلى
أنبيائه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَذْوًا لِجَنْبِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ
بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] وقال تعالى: ﴿نَزَّلْنَا بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [١٩]
﴿فِيْكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾

٦ - ومنهم الموكلون بقبض الأرواح عند حلول آجالها، كما
قال تعالى: ﴿قُلْ يَنْوَفُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتَىْ الَّذِي وُكِلَّ بِكُمْ ثُرَّ إِلَّا رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ﴾ [البخاري: ١١]. وقال سبحانه: ﴿حَتَّىْ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ
الْمَوْتُ تَوَفَّهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الإنطبلة: ٦١]. وقال تعالى:
﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَرُهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

٧ - ومن أهم أعمال الملائكة: كتابة ما يعمله البشر من
أعمال وأقوال وتسجيلها في صحف وكتب لتكون شاهدا على
الإنسان يوم القيمة كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا عَلِيَّكُمْ لَهُنَّظِينَ﴾ [١]
كَيْنَ [١١] يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [الإنطبلة: ١٢] وقال تعالى: ﴿إِذْ

يَنْهَا الْمُتَّلِقِيَانِ عَنِ الْأَيْمَنِ وَعَنِ الْأَعْمَالِ فَيَعْدُ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ
عَيْدِهِ ﴿١٨﴾

- ٨ - ومن الوظائف الشريفة لبعض الملائكة: حمل عرش الرحمن ذي العزة والجلال: كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْلُؤنَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ حَمْدَ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِمُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾
- ٩ - ونخت بعمل من أكثر الأعمال إسعاداً للمؤمنين، ألا وهو تبشيرهم عند الموت برحمته الله وجنته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ أَسْتَقْنَعُوا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْرَبُوا وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] لا تخافوا: أي مما تقدمون عليه بعد مماتكم. ولا تحزنوا: على ما فاتكم من وراءكم.

ولله ما أجمل تلك اللحظة وأسعدها .. تخيل أنك في تلك اللحظة الرهيبة المرعبة: لحظة الموت، وأهلك من حولك يبكون، ولا أحد منمن حولك يفهمك أو يستطيع أن يقدم لك المساعدة؛ في هذه اللحظة تنزل الملائكة، إما بالبصري وإما بالعذاب، فتقول للعبد المؤمن المستقيم: لا تخف، ولا تحزن - وليس ذلك فقط - بل وتبشره بالجنة أيضاً: ﴿وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. فأي راحة وأي سعادة تتغشى العبد المؤمن في تلك اللحظة؟!

الركن الثالث من أركان الإيمان الإيمان بالكتب

من شمولية الإسلام وخصائصه وتميزه على ما سواه: أنه يجعلك تصطلح مع كل رسل الله وكتبه وليس كبقية الأديان، بل إن الإسلام يخبرك بأنك إن لم تؤمن بالأنبياء الذين بعثوا لأهل الكتاب -اليهود والنصارى- فإنك لا تكون مسلماً.

قارن هذا بضيق الأفق الذي تجده عند أهل الكتاب الذين يفرقون بين الله ورسله ويقولون نؤمن بعض ونكرر بعض، يؤمنون بموسى وعيسى ويكفرون بمحمد ﷺ، يؤمنون بعضهم بالتوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن، ويؤمن آخرون بالتوراة والإنجيل ويكفرون بالقرآن، بينما نحن نؤمن بموسى وعيسى ومحمد وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونؤمن بالتوراة والإنجيل والقرآن - وإن كنا نعتقد أن التوراة والإنجيل الموجودين اليوم قد تم تحريفهما -.

وقد عبر أحد العائدين إلى الإسلام من النصرانية بتعبير جميل واصفاً هذه الحالة الشمولية في الإسلام بقوله: (ربحت محمداً ولم أخسر المسيح) وجعلها عنواناً لكتاب ألفه في ذلك، أي أنه حين أسلم فإنه لم يخسر حبه ولا تعظيمه للمسيح عليه السلام لأنه في نظر الإسلامنبي من أفضل الأنبياء، وفي نفس الوقت ربح الإيمان بمحمد عليه السلام، الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب والرسل ومنهم عيسى عليه السلام.

كيفية الإيمان بالكتب:

الإيمان بالكتب يكون عبر مقامين اثنين:

الأول: التصديق المجمل.

الثاني: التصديق المفصل.

فأما التصديق المجمل فهو الإيمان بأن الله أنزل كتاباً على رس勒ه وأنبيائه، كما قال عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَيْكُمْ فِي الْأَرْضِ مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقَسْطِ﴾ . وأما المفصل، فهو: التصديق بتفاصيل ما أخبر الله به عنها في القرآن من اسمائها وما يتعلق بها من حفظ أو تحريف ونحو ذلك، فالله أخبرنا أنه أنزل التوراة على موسى والزبور على داود والإنجيل على عيسى عليه السلام وأخبرنا عن صحفنبي الله إبراهيم، فيجب علينا الإيمان بكل ذلك.

وأخبرنا كذلك بتحريف أهل الكتاب للكتاب، كما قال ﷺ:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكُنُّبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ إِلَيَشْرَوْا بِهِ ثَمَّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَنَّبُتُ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ولكن هذا لا يعني أنه لم يبق فيه شيء صحيح، بل هناك أمور باقية من الوحي الإلهي لا تزال محفوظة، ومن الأمثلة على ذلك: ما جاء في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثِيَهَا عِبَادُنَا الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ونحن نعلم أن الزبور أُنزل على داود عليه السلام، وإذا راجعنا سفر المزامير في «الكتاب المقدس» وهو السفر المتعلق بداود عليه السلام سنجد هذا النص مكتوبًا: «الصديقون منا يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد»^(١) وأن ترى أن هذا يتواافق مع ما أخبر القرآن أنه مكتوب في الكتب السابقة، هذا بالإضافة إلى النصوص الموجودة لديهم والتي تتحدث عن النبي عليه السلام وتبشر به، ويمكن مراجعة (هل بشر الكتاب المقدس بمحمد عليه السلام؟) للدكتور منقذ السقار في هذا الموضوع لتقف على النصوص الموجودة في الكتاب المقدس المتعلقة بهذا المعنى.

القرآن: خاتمة الكتب الإلهية للبشر والمعجزة الكبرى:

أما القرآن الكريم - وهو آخر كتاب أنزله الله تعالى ولا كتاب بعده - فهو الكتاب العظيم المحفوظ من التحريف

(١) سفر المزامير (٣٧: ٢٩)

والنقص، ومن عظمته أن الله ﷺ وصفه بقوله: ﴿لَوْ أَنَزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتَلَكَ الْأَمْمَالُ نَضَرِّهَا لِلنَّاسِ﴾ [المُثَّلِّ]: ٢١]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قَرْءَانًا سُرِّيَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْقِفُ بَلْ لَهُ الْأَمْرُ جَيِّعًا أَفَلَمْ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَسْأَئِهِ اللَّهُ لَهُدَى النَّاسِ جَيِّعًا وَلَا يَرْبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَبِّهِمْ بِمَا صَنَعُوا فَارِعَةً أَوْ تَحْلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الْتَّكَوِّلِ]: ٣١] والجواب في الآية محدود تقديره: (لكان هذا القرآن)، فتقدير الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّ قَرْءَانًا سُرِّيَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْقِفُ﴾ = (لكان هذا القرآن) ولك أن تخيل العظمة بعد ذلك.

وجاء الحذف هنا لظهور عظمته، كقول القائل مثلا: (لو رأيت فلاناً وهو يخطب) دون أن يكمل الجواب -أي دون أن يقول: لرأيت خطيباً بارعاً - فالذي سيأتي في بال السامع أنه خطيب بارع ومؤثر، وهو أبلغ من قوله (لو رأيت فلاناً وهو يخطب لرأيت خطيباً بارعاً) فهذا سيقلل فخامة الجملة و شأنها .

إعجاز القرآن:

إن من أعلى جوانب عظمة القرآن: إعجازه؛ وذلك أن النبي ﷺ لما نزل عليه القرآن، وكذبه قومه، أتاهם بآية قاهرة، ومعجزة بيّنة من عند الله ﷺ، وهي متعلقة بهذا القرآن، وذلك أنه تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن بل بسورة منه! وحتى تتصور عظمة هذا التحدي فاستحضر المعطيات التالية:

- نوع الخصوم: عرب أقحاح، بضاعتهم البيان، وميدانهم اللغة والفصاحة.

- عددهم: لا يُحصى لأن التحدي كان عاماً لهم ولأنصارهم بل وحتى للجن الذين معهم.

- صيغة التحدي: قوية واضحة مستفزة للطرف الآخر، فلو كان قادراً فلا يمكنه ألا يجيب.

- الإغراء: لو استطعتم الإتيان بسورة مثل القرآن ينتهي الإسلام وتتتصرون أنتم.

- المحفزات: لا تحتاجون إلى قتال ولا إلى سفك دماء ولا إجراء معارك وحروب، فقط تكلموا بالستكم وائتوا بمثل هذا القرآن.

- وما يزيد التحدي استفزازاً لهم: إخبارهم بأنهم لن يستطيعوا -البته- أن يكسروا هذا التحدي، وأن من الخير لهم أن يتقووا النار عوضاً عن ذلك.

- النتيجة: عجزُ العرب، وانتصار القرآن، وشموخ الإسلام.

قال الله تعالى ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَتُؤْمِنُونَ بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾٢٦﴿إِنَّمَا تَنْهَاكُمُ الْجِنُّ إِذَا دَرَأُوكُمْ فَمَا أَنْهَاكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ﴾

لِلْكَفَرِينَ ﴿البَّيْتُ الْمُكَفَّرُ: ٢٣-٢٤﴾ وكتب الدكتور محمد دراز بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ معلقاً على الآية: «فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز: لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤيد في قوله: ﴿وَلَنْ تَقْعُلُوا﴾، ثم هددتهم بالنار، ثم سوّاهم بالأحجار، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأباء الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم. ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلْمًا يصعدون به إلى مزاحمه، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طُود شامخ، مما اسطاعوا أن يظهوه وما استطاعوا له نقباً، حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الح توف، واستنبطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك حيلة يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعاً بالقلم واللسان.

ومضى عصر القرآن والتحدي قائم ليجرب كل امرئ نفسه، وجاء العصر الذي بعده وفي البداية وأطرافها أقوام لم تختلط أنسابهم، ولم تنحرف ألسنتهم، ولم تتغير سليقتهم، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الدين من أساسه، ويشتبوا أنهم قادرؤن من أمر القرآن على ما عجز عنه أوائلهم؛ لفعلوا، ولكنهم ذلت أنفاسهم له خاضعين، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل. ثم مضت تلك القرون، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد كانوا أشد عجزاً، وأقل طمعاً في هذا المطلب العزيز فكانت شهادتهم على

أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم، . . . ، ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها»^(١).

إن هذا النوع من العظمة جعل علماء المسلمين يتساءلون: ما الذي أعجز العرب في هذا القرآن؟! فتتجزء بحثهم في الجواب عن ذلك: علمٌ ضخمٌ فخمٌ من علوم المسلمين اسمه: (علم إعجاز القرآن) وهو علمٌ يبحث في ثبوت إعجاز القرآن وبيان وجه إعجازه. وقد تحدثتُ عنه في محاضرة مطولة على موقع «يوتيوب» بعنوان: إعجاز القرآن عند المتقدمين، شرحتُ فيه تفاصيل هذا العلم وموضوعاته وأهم كتبه.

هذا، وإنّ من أهم ما أُلْفَ في هذا الباب: كتاب بيان إعجاز القرآن للخطابي، وكتاب إعجاز القرآن الكريم للباقلاني، وكتاب دلائل الإعجاز للجرجاني، وكتاب النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز.

ولعل من المناسب أن أختتم الحديث عن إعجاز القرآن الكريم بما ختم به الإمام الخطابي كتابه (بيان إعجاز القرآن) متتحدثاً عن أثر القرآن على النفوس وعظمته في التغول لأعمق الروح، قائلاً: (قلتُ في إعجاز القرآن وجهاً آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم؛ وذلك: أحذُه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن،

(١) النبأ العظيم، محمد دراز، طبعة دار طيبة (ص ١٠٥ - ١٠٦).

منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعاً قد عرّاها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تتشعر منه الجلود، وتتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضرماتها وعقائدها الراسخة فيها .. فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يرکنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفراً لهم إيماناً ... بعث الملاً من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ ليوافقوه على أمور أرسلوه بها، فقرأ عليهم آيات من حم السجدة، فلما أقبل عتبة وأبصره الملاً من قريش، قالوا أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به^(١).

(١) الخطابي، بيان إعجاز القرآن: ٧٠

الركن الرابع من أركان الإيمان الإيمان بالرسل

كما سبق في الإيمان بالكتب مِنْ أن الإسلام يجعلك في حالة تصالح مع كُتب الله، فإنه يجعلك كذلك تجاه الأنبياء والمرسلين، فنحن نؤمن بكل الرسول الذين قص الله علينا خبرهم في القرآن، فما أخبرنا به مفضلًاً أممًا به مفضلًاً، وما أخبرنا به مُجملًاً أممًا به مجملًاً. فالإيمان المفضل يتعلق بأسمائهم وصفاتهم وكتبهم وأخبارهم -كل ذلك يجب الإيمان به كما أخبر الله ورسوله- والإيمان المجمل، مفاده: أن هناك رسلاً أرسلهم الله وإن كنا لا نعلم عنهم شيئاً، ولكننا نصدق بوجودهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَمَّا لَمْ نَقَصْصْ عَلَيْكَ﴾ [عَزْلٌ: ٧٨]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وفي هذه الآية الرد على من يزعم أن وجود الأنبياء انحصر فيما يُعرف بمنطقة الشرق الأوسط، فهي خبر صادق بوجود الأنبياء في كل الأمم.

دين الأنبياء واحد وشرائعهم مختلفة:

- يخبرنا القرآن بأنَّ الأنبياء كلهم كانوا مسلمين لله تعالى، أديانهم قائمة على التوحيد كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصَارَائِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، قوله سبحانه: ﴿قُولُوا إِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَّا إِنَّهُ عَلَىٰ هُوَ سَمِيعٌ وَإِنْسَحَقٌ وَيَعْقُوبٌ وَالْأَسْبَاطٌ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

- ويخبرنا القرآن كذلك بأنَّ الأنبياء وإن كانوا يشترون في التوحيد وأصل الرسالة إلا أن شرائعهم تختلف ما بين نبي وآخر كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعْلَنَا مِنْكُمْ شَرِعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

- ويخبرنا القرآن أيضاً بأنَّ النبي ﷺ بعث مصدقاً للأنبياء في أصل هذه الرسالة، وأن شريعته جاءت ناسخة لكل الشرائع السابقة ومهيمنة عليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَهِيمًا عَلَيْهِ﴾.

أصناف المكذبين بالرسل والنبوات:

المكذبون بالرسل أصناف:

- فمنهم الملحدون، الذين لا يعترفون بوجود الله أصلاً. وهؤلاء لا يكون النقاش معهم في تفاصيل النبوة بل في إثبات وجود الله تعالى، لأنهم ينكروها من ناحية الإمكان، فإذا ثبنا أن الله موجود لم يعد هناك وجه للقول بأن النبوة مستحيلة، لأن

الذي خلق الكون غير عاجز - سبحانه - عن إرسال رسول ! والذى خلق الكون وجعل له قوانين غير عاجز - جل شأنه - عن تأييد أنيائه بمعجزات تخالف بعض ما اعتاده الناس من قوانين كونية .

- ومنهم الربوبيون الذين يؤمنون بوجود الخالق وينكرون كل الأديان . فهؤلاء يكون النقاش معهم من مبدأ أهمية النبوة وضرورتها وتوافقها مع الحكمة الإلهية ، ثم بإثبات نبوة النبي ﷺ .

- ومنهم أصحاب الأديان الذين يؤمنون بأنبياء ويكرفون بآخرين ، كاليهود والنصارى . فهؤلاء يكون النقاش معهم بإثبات نبوة محمد ﷺ ، وأنه لا فرق بين الرسل من جهة أصول رسالاتهم ، وأن رسالة النبي ﷺ مصدقة لرسالات الأنبياء وليس مكذبة لها .

دلائل نبوة النبي ﷺ :

إن الدلائل والبراهين التي تثبت لنا أن محمدا عليه الصلاة والسلامنبي مرسل من عند الله تعالى كثيرة جداً ، وقد أوصلها بعض العلماء إلى ألف دليل ، وكتب العلماء في ذلك وألفوا ، وجمعوا وحققوا ، فمنهم الذي ركز على دلائل العقل ، ومنهم من اهتم بدلائل الخبر ، ومنهم من اهتم بجانب المعجزات الحسية .

ومن أجمع الكتب المتقدمة : كتاب دلائل النبوة للبيهقي ، ومن أفضل الكتب المعاصرة : كتاب براهين النبوة لسامي عامري ، وكتاب النبأ العظيم لمحمد دراز ، ومن أراد شيئاً مسهلاً لطيفاً

فيمكنه مشاهدة سلسلة حلقات للدكتور منقذ السقار بعنوان:
براهين النبوة .

وسأعرض شيئاً من دلائل النبوة على طريقة جدول بعنوان (التنوع والتكامل في دلائل النبوة) ولكن قبل ذلك، سأشير إلى قضية مهمة جداً، ألا وهي أن النبوة خبر من الأخبار، أي أن النبي يُخبر بأنه نزل عليه الوحي، والمُخْبِر إما أن يكون صادقاً أو كاذباً، وتمييز الصادق من الكاذب في الأمور الكبيرة - مثل النبوة - سهل جداً، لأن الذي يدّعى أنهنبي ولا يكون كذلك فإنه يكون من أشد المخلوقات كذباً، وتمييز هذا النوع من البشر في غاية اليسر، حتى الجاهل يمكنه معرفة كذب من يدّعى النبوة وهو غير صادق فيها، ولذلك قال الإمام ابن أبي العز الحنفي:

«النبوة إنما يدّعى بها أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تُعرِّب عنهمَا، وتُعرِّف بهمَا، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟»^(١) وهو كلام في غاية النفاسة، وقد ذكره قبله الإمام ابن تيمية وذلك في شرحه للعقيدة الأصبهانية، وسأذكر الكلام بنصّه مع اختصار يسير، قال رحمة الله تعالى:

«ومعلوم أن مدعى الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق

(١) شرح الطحاوية، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد (ص ١٠٩)

وأكملهم، وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم، فكيف يشتبه
أفضلُ الخلق وأكملُهم بآنقصُ الخلق وأرذلهم؟!

وما من أحد ادعى النبوة من الكاذبين إلا وقد ظهر عليه من
الجهل والكذب والفجور واستحواد الشياطين عليه ما ظهر لمن له
أدنى تمييز. وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر
عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن له
أدنى تمييز، فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم
بأمور ولا بد أن يفعل أموراً؛ والكذاب يظهر في نفس ما يأمر به،
وما يخبر عنه، وما يفعله ما يَبِينُ به كذبه من وجوه كثيرة،
والصادق يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه ويفعله = ما يظهر
به صدقه من وجوه كثيرة.

والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة حتى
في المدعين للصناعات والمقالات كالفلاحة والنساجة والكتابة،
وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك، فما من أحد يدعي العلم
بصناعة أو مقالة إلا والتفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له
وجوه كثيرة، وكذلك من أظهر قصداً وعملاً كمن يظهر الديانة
والأمانة والنصيحة والمحبة وأمثال ذلك من الأخلاق فإنه لا بد
أن يتبيّن صدقه وكذبه من وجوه متعددة.

والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول
بها، وهي أشرف العلوم، وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق
فيها بالكاذب؟ ولا يتبيّن صدق الصادق وكذب الكاذب من وجوه

كثيرة؟ لا سيما والعالم لا يخلو من آثار نبي من لدن آدم إلى زماننا، وقد عُلم جنس ما جاءت به الأنبياء والمرسلون وما كانوا يدعون إليه ويأمرون به، ولم تزل آثار المرسلين في الأرض ولم يزل عند الناس من آثار الرسل ما يعرفون به جنس ما جاءت به الرسل ويفرقون به بين الرسل وغير الرسل.

فلو قدر أن رجلا جاء في زمان إمكان بعث الرسل وأمر بالشرك وعبادة الأوثان وإباحة الفواحش والظلم والكذب، ولم يأمر بعبادة الله ولا بالإيمان باليوم الآخر هل كان مثل هذا يحتاج أن يطالب بمعجزة أو يشك في كذبه أنه نبي؟» إلى آخر
كلامه بكتاب الله (١)

(١) شرح الأصبهانية، مكتبة دار المنهاج، باختصار من (٥٣٩-٥٤٤)

تنوع وتكامل دلائل النبوة

نوع الدليل	أمثلة من آحاد الدليل
الكمال	- شهادة قومه له بالأمانة والصدق:
الأخلاقي	١- موقف وضعه الحجر الأسود في الكعبة زمن
(الصدق	الجاهلية.
والأمانة)	٢- عندبعثة حين قال: لو أخبرتكم أن جيشاً سيخرج من وراء الجبل هل تصدقونني فقالوا: نعم.
	٣- موقف أبي سفيان حين سأله هرقل وهو رئيس الروم: «هل كتم تهمونه بالكذب»؟ فأجابه أبو سفيان: لا. فقال له هرقل: «وَسَأْلُكَ هَلْ كُوْتُمْ تَتَهِّمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ؟ فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ» ^(١)

(١) صحيح البخاري (٧).

<p>- تسليم أمانات المشركين قبل الهجرة.</p> <p>- تبليغ الآيات التي فيها عتاب له، مثل ﴿عَسَرَ وَوَيْلٌ﴾ [آل عمران: ١] ومثل: ﴿وَتُنْهَىٰ فِي نَفْسِكَ مَا أَلَّهُ مُبِدِيه﴾ [الإجاثة: ٣٧]. ومثل ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذَنْتَ لَهُم﴾ [التونية: ٤٣].</p> <p>- حادثة الإفك: حيث تربص شهراً كان شديداً عليه جداً لم يقل فيه شيئاً من عنده، حتى نزل الوحي بعد ذلك بدروس الموقف وعبره.</p> <p>- حين كشف الشمس في اليوم الذي مات فيه إبراهيم ابن النبي ﷺ قال الناس: (كسفت الشمس لموت إبراهيم) فقام فيهم خطيباً مُصححاً هذا الاعتقاد الخاطئ، معظماً ربه وخالقه ومولاه قائلاً: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ أَيَّتَانٍ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَنْكِسُفَانِ لِمَوْتٍ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاةٍ»^(١).</p> <p>- والأمثلة كثيرة بالغة الكثرة لا يمكن سردتها كلها ولا نصفها هنا، وهذا فقط في نوع واحد من الأدلة.</p>	<p>الأيات الحسية</p>
<p>- أعظمها: عجز العرب عن معارضته الكتاب الذي جاء به.</p>	

(١) صحيح البخاري (١٠٤٣)، صحيح مسلم (٩٠٢).

<ul style="list-style-type: none"> - نبع الماء من بين أصابعه . - الشفاء بريقه وبمسحة يده . - تكثير الطعام بين يديه . - انشقاق القمر . 	
<p style="text-align: center;">الأخبار الغيبة</p> <ul style="list-style-type: none"> - الإخبار بدخول مكة ﴿لَتَدْخُلَنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ إِمَّا مِنْ يَنْتَهِ﴾ - الإخبار بمقتل قادة مؤتة . (البخاري ١٢٤٦) - الإخبار بمقتل عمار <small>رضي الله عنه</small> على يد مسلمين بغوا عليه : «تقتل عمارًا الفئة الباغية» البخاري (٤٤٧) - الإخبار بخروج الخوارج : «تمرق مارقة من الدين على حين فرقه من المسلمين» مسلم (١٠٦٤) 	
<ul style="list-style-type: none"> - الإخبار بأن الحسن بن علي سيصلح بين فترين عظيمتين من المسلمين ، وقد حصل ذلك عام الجمعة . (البخاري ٢٧٠٤) - الإخبار بفتح فارس «لن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى» (البخاري ٣٥٩٥) - حديث أن من علامات الساعة : «أَنْ تَرَى الْحُفَّةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَنْطَوِلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» (صحيح مسلم ٨) - إلى آخره من النصوص الغيبة الكثيرة جدا . 	

القرآن الكريم

ووجوه دلالة القرآن على صدق النبي ﷺ كثيرة جداً سبق الحديث عن شيء منها في مبحث الإيمان بالكتب، وهو موضوع: الإعجاز القرآني ولكن القرآن يدل بأكثر من ذلك، ففيه الأخبار الغيبية أيضاً - غير أخبار السنة التي سبق ذكرها، مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيٌّ بِالرُّؤْمِ﴾ في أدنى الأرض وهم مَنْ بَعْدَ عَلَيْهِمْ سَكَنُوا ﴿فِي بَضَعِ سِينِينَ﴾ وهذا من أعظم الأخبار الغيبية لمن تأمله. وفيه العلوم العالية التي لم يعرفها العرب ولا يستطيعونها مع أن النبي ﷺ نشأ بينهم. وغير ذلك

أخبار الكتب السابقة

- (جاء في إنجيل يوحنا / الإصلاح السادس عشر، أن عيسى ﷺ قال: «وَأَمَّا الآن فَأَنَا ماضٍ إلى الذي أرسلني، وليس أحد منكم يسألني: أين تمضي؟ لكن لأنني قلت لكم هذا قد ملا الحزن قلوبكم. لكنني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم «المُعَزِّي»، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم» .. «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوها الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من

نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني؛ لأنه يأخذ مما لي ويخبركم». انتهى.

وهذه بشاره بمن يأتي بعده صفتة أنه لا يتكلم من نفسه بل يتكلم بما يسمع، ويخبر بأمور آتية، وهذه صفتة تذكروا بقول الله عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْمُؤْمَنِ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النَّجَاحُ: ٣، ٤] قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَأَنْجِعَ قُرْءَانَهُ﴾ [الْقَيْمَانُ: ١٨]

هذا غير ما ذكره عدد من الباحثين ومنهم د: منقد السقار . وهو متخصص في هذا الباب . في معنى الكلمة (المعزي) وأنها ترجمة غير دقيقة للنص الأصلي باليونانية (باراقليط) وأن المعنى الأدق للكلمة اليونانية هو: الذي له الحمد الكثير، فيكون الاسم الدال على ذلك (أحمد) أو (محمد) أو (الحامد) وليس المُعَزِّي^(١) فيكون ذلك . لو صح . من جملة تحريفاتهم^(٢) .

(١) ذكره دكتور منقد السقار في مقطع مرئي له في اليوتيوب بعنوان: بشاره النبي محمد في التوراة والانجيل على هذا الرابط وغيره:

<https://www.youtube.com/watch?t=347&v=KSdXkfGHRAI>

(٢) كتاب ساغفات ، أحمد السيد (١١٤-١١٣)

- وهناك نصوص أخرى لمن أراد التوسع براجح
كتاب: هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟
وكتاب: تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام
ورسوله ﷺ، لنصر الله أبو طالب. وكتاب:
يجدونه مكتوبًا عندهم. لفيصل علي الكاملي.

وهذا غيض من فيض، ونقطة من بحر، فالعالق حين يرى
هذه الدلائل، و يجعل بينها تكاملاً، فإنه لا يسعه إلا أن يقول:
أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله!

الركن الخامس من أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر

لحظة الموت والانتقال إلى الدار الآخرة:

يبدأ اليوم الآخر بالنسبة للإنسان عند لحظة موته؛ حيث ينتقل من عالم الدنيا إلى عالم آخر، عالم ممحوبة حقائقه عن حواسنا، وإن كنا نعلمها بالخبر الصادق عن النبي ﷺ.

ولئن كان يوم القيمة يُسمى في القرآن الكريم (الساعة) وذلك في آيات كثيرة، فإن النبي ﷺ قد جعل لحظة موت الإنسان ساعةً بالنسبة إليه، كما في صحيح البخاري عن عائشة قالت: كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: «إن يعيش هذا، لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم». قال هشام: يعني موتهم^(١)

(١) صحيح البخاري (٦٥١١)

قال الإمام ابن كثير رَحْمَةُ اللَّهِ معلقاً على الحديث: (وذلك أَنَّ مات فقد دخل في حكم القيامة، فعالِم البرزخ قريب من عالم يوم القيمة، وفيه من الدنيا أَيْضًا، ولكن هو أَشَبَ بالآخرة، ثُمَّ إذا تناهت المدة المضروبة للدنيا، أَمْرَ اللَّهِ بِقِيامِ السَّاعَةِ، فَيُجْمَعُ الْأُولُونَ وَالآخِرُونَ لِمِيقَاتِ يَوْمِ الْعِلُومِ)^(١)

وعند تلك اللحظة الرهيبة العظيمة تأتي البشري للمؤمن برضوان الله وجنته، فيقال له: لا تخف مما أَمامك، ولا تحزن على ما وراءك. وهي اللحظة التي يكون فيها أهله حوله يبكون ويتألمون لفراقه، وهم لا يعلمون أنه فرح سعيد مبتهج مطمئن، مشتاق للقاء الله تَعَالَى، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي تَعَالَى قَالَ: «مَنْ أَحَبَ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَ اللَّهَ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهَ لِقَاءَهُ». قالت عائشة، أو بعض أزواجها: إنما لنكره الموت! قال: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَ الْمَوْتَ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبُ إِلَيْهِ مَا أَمَامَهُ، فَأَحَبَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَأَحَبَ اللَّهَ لِقَاءَهُ، إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعَقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مَا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهَ لِقَاءَهُ»^(٢). فهذا من أعظم المبشرات وقد أخبر الله تعالى عن ذلك في سورة فصلت، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ أَسْتَقْنَمُوا تَتَزَلَّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْرَجُوا وَابْتَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١٩٧/١).

(٢) صحيح البخاري (٦٥٠٧).

وكما أن هذه اللحظة هي البشرى الكبرى بالنسبة للمؤمن
 - ولا تنافسها بشرى إلا حين يستلم كتابه بيديه يوم القيمة -، فإنها
 - في نفس الوقت - لحظة عصيبة مؤلمة شديدة على المنافقين
 والكافر والفاجر، فهو في تلك الحال التي يحتاج الإنسان فيها
 إلى أدنى بصيص ضوء أو أمل، تأتيه النذارة بأن الله ساخط عليه
 وأن ما أمامه إنما هو العذاب! كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ
 الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوهُ أَنفُسَكُمْ
 الْيَوْمَ تُبَغْرَبُ عَذَابَ الْهُوَنِ يِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ
 أَيْمَانِهِ تَسْتَكْرِبُونَ﴾ [الإنعام: ٩٣] فالملائكة يقول لهم عند الموت:
 اليوم تجزون العذاب! يا إلهي! بل إن الأمر أشد من ذلك، فمعنى
 قول الله: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب، والعذاب، كما قال
 المفسرون وكما شهد له القرآن في مواضع أخرى. فيضرب
 المجرم عند الموت، ويبشر بالعذاب، مع حزنه على ما فاته من
 الدنيا، وقلقه أصلاً من الموت .. أي لحظة تلك! أي شدة وأي
 صعوبة وأي بؤس وأي شقاء! ولذلك فإن العباد والصالحين
 كانوا يعملون لتلك اللحظة وما بعدها كثيراً، ويقومون لأجلها
 بالليل يصلّون قانتين لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ
 إِنَاءَ اللَّيلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَرَبِّهِ رَحْمَةً رَّاهِهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
 الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُفُوْلُوا الْأَلْبَبُ﴾ وكما قال
 سبحانه - كذلك -: ﴿تَجَاجُنَ جُوْبِهِمْ عَنِ الْمَصَاصِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا
 وَطَمَعًا وَمَمَّا رَزَقَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

اللهم ارحمنا يا رب وأحسن خاتمانا يا حليم يا كريم.
ولدتك أملك يا ابن آدم باكيًا

والناس حولك يضحكون سرورا
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا
في يوم موتك ضاحكًا مسرورا
وهذه بداية رحلة الروح، في عالم البرزخ ..

القبر: فتنته ونعيمه وعذابه:

من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإنسان بعد موته وقبل
بعثه -أي في مرحلة البرزخ حين يكون في قبره- فإنه لا يعيش
مرحلة فراغ، بل إنه يمر برحلة طويلة للروح إما نعيم وإما شقاء،
وأنه أول ما يوضع في قبره يتعرض للسؤال والامتحان من جهة
ملائكة مخصصة لذلك، وأنه سيجib بحسب سيره في الحياة
الدنيا، وأنه بناء على هذا الجواب سيعيش بقية حياته البرزخية في
القبر.

وقد يظن الإنسان أن الأمر سهل لأنّه يعرف الأسئلة مسبقا
ويحفظ الجواب، ولكن الحقيقة أن الإجابة هناك لن تكون
بالحفظ، بل بما كان يعتقده ويؤمن به.

وفي تلك اللحظة حين يُسأل الإنسان، يكون الأهل
والأصحاب والأقارب والأحباب قد نفروا أيديهم من تراب
القبر، وتحلقوا حوله يبكون ويدعون، هذا في العالم الظاهر فوق

الأرض، أما في العالم الباطن تحت الأرض فهناك أمور وأحوال أخرى، هم رأوا جثماناً وتراباً ولحداً وكفناً، رأوا أن ذلك نهاية المشهد، ولكن في الحقيقة إنما هو البداية.

بداية رحلة أبدية خالدة، أولها سؤال وفتنة وامتحان، ثم إما نور وفسحة ونافذة إلى الجنة، وإما ظلام وضيق ونافذة إلى النيران، فالمرء -بعد سؤال الملkin- يظل إلى يوم البعث إما منعماً وإما معذباً، نسأل الله العافية.

وعند ذلك، وفي تلك البقعة الضيقة المظلمة تحت التراب، يتمنى الإنسان أن يجد بصيص أمل لأي شيء، يتمنى أن يرى أي أثر لعمل صالح، يتمنى أن يكون قد بقي له شيء يدر عليه الحسنات، فإن كان من أصحاب الصدقات الجارية -كحفر الآبار، أو بناء المساجد، أو إنشاء المدارس التي تربى الناس على الصلاح والأخلاق-، أو كان ممن ترك علمًا نافعًا -كالكتب أو الدروس المسجلة أو الدعاة الذين علمهم ورياهم^(١)-، أو ترك ولدًا صالحًا يدعوه له = فيا لسعده وهنائه، وهذا هو الذي خطط مستقبله جيدًا.

ومن هنا ندرك جانبًا من جوانب أهمية: (الولد صالح) إذ في ذكره لفتة مهمة في الرد على الداعين إلى ترك الزواج ونبذه، حيث لا يرون في الزواج سوى مسؤوليات وأعباء، ويدعون في

(١) لهم يدخلون في العلم النافع المؤرث أو في الصدقة الجارية.

الوقت ذاته إلى إقامة العلاقات خارج إطار الزواج، لأنها تتحقق اللذة بدون مسؤوليات. وهذه نظرة تختلف مع المبدأ الإسلامي في الزواج تماماً، الذي ينظر إلى الأسرة على أنها لبنة أساسية في المجتمع وأن صلاحتها فيه صلاح للمجتمع، وتختلف مع نظرته للأبناء على أنهم مشروع عظيم يستمر إلى ما بعد موت الإنسان.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا من هذه الأعمال الثلاثة أوفى الحظ والنصيب .. آمين.

من أدلة الكتاب والسنة على فتنة القبر ونعيمه وعذابه وما ينفعه: وبعد العرض السابق لمرحلة القبر وفتنته سأسرد مجموعه من الأدلة على ما ذكرتُ، لأن هناك من أهل البدع من تعود الجحود حتى جحدوا مثل هذه المعانى التي جاءت بها الشريعة.

١- قال الله سبحانه: ﴿يَثِّبْتُ اللَّهُ أَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الْثَّالِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وقد فسر النبي ﷺ هذه الآية وبينها، كما أخرج الإمام البخاري ومسلم في صحيحهما^(١) عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: ﴿يَثِّبْتُ اللَّهُ أَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الْثَّالِتِ﴾ قال: «نزلت في عذاب القبر، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربى الله، ونبي محمد ﷺ، فذلك قوله ﷺ ﴿يَثِّبْتُ اللَّهُ أَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الْثَّالِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

(١) اللفظ لمسلم، والحديث في البخاري برقم (١٣٦٩) وفي مسلم برقم (٢٨٧١)

- أخرج الإمام البخاري في صحيحه^(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه حدثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليس مع قرع نعالهم، أتاه ملكان في قعوده فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل -محمد صلى الله عليه وسلم؟ فأما المؤمن فيقول:أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعده من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة. فيراهما جميعا». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصبح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين».

- أخرج الإمام مسلم في صحيحه^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا خرجت روح المؤمن؛ تلقاها ملكان يُصعدانها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها، وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك، وعلى جسد كنت تعمرنيه. فينطلق به إلى ربها عز وجل، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال: وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من نتنها، وذكر لعننا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر

(١) (١٣٧٤)

(٢) (٢٨٧٢)

الأجل . قال أبو هريرة : فرد رسول الله ﷺ ربطه كانت عليه على أنفه . هكذا .

٤ - أخرج الإمام مسلم في صحيحه^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة؛ إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» .

النفح في الصور:

في لحظة لا يعلم زمانها إلا الله ﷺ لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴿لَا يُحِبِّهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾
بعد رحلة طويلة في البرزخ : يُنفح في الصور بصوت عال مهيب
صاخ صارخ ، فيبعث الله معه الناس من قبورهم ، ويحضر
الأجساد ، ويحييها بعد الموت كما يحيي الأرض بعد موتها :
﴿وَمِنْ أَيَّتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لِمَنِ اتَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]
وكما خلق الإنسان أول مرة من العدم فإنه يعيد إحياءه وخلقه مرة أخرى : ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [٧٨] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً وَهُوَ بِكُلِّ حَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩-٧٨]

وهذه النفحـة التي يبعث الله بها الناس ليست الأولى ، بل الثانية ، وأما الأولى فهي نفحـة يُصـعق بها من في السماوات ومن في الأرض ، فمن بقي من الناس حـيـا وقت نهاية الدنيا

(١) (١٦٣١)

فسيموت بالصعقة الأولى، ثم يمكثون ماشاء الله ثم تأتي النفخة الثانية وهي التي سماها الله تعالى (الصاخة) أي أنها من قوتها تضم الآذان أو تقاد.

قال الله تعالى: ﴿ وَنُفَخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ .

البعث والحضر:

يخرج الناس من قبورهم ينظرون: ما هذا؟ من بعثنا من مرقدنا؟ ما الذي جرى؟ يا إلهي! إنه لحق! إنه لصدق! هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون! ثم يلتفتون إلى أنفسهم فإذا هم كما خلقهم الله أول مرة: حفاة عراة، غرلاً -غير مختونين- كما ثبت في الصحيح عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيمة حفاة عراة غرلا» قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض، قال ﷺ: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»^(١)

وكل شيء حينذاك مهول مخوف، فالأرض غير الأرض، والنجوم متشربة، والسماء منشقة، والبحار مشتعلة، والأرض تُزلزل، والحيوانات والسباع والأسود تُحشر، والجبال الشم الرواسي تُفتت: ﴿ وَسَلَوَنَكَ عَنِ الْجَبَالِ فَقُلْ يَسْقُفُهَا رَبِّ نَسَافًا ۚ فَيَزَرُهَا قَاعًا صَفَصَفًا ۚ ۝ لَا تَرَى فِيهَا عِوَاجًا وَلَا أَمْتَانًا ۝ ۚ ۝ [١٠٥-١٠٧] ۝ [٣٦: ٥]

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٩)

فيكون الناس كالفراش المبثوث، ويفرّ الآخ من أخيه وأمه وأبيه، لأن لكلّ منهم شأن يغنه.

ثم يسمعون الداعي الذي يقودهم إلى ساحة الحشر، فيسرون خلفه كأنهم جراد منتشر **﴿مُهْطِعُنَ إِلَى الْدَّاعِ﴾** أي مسرعين إليه **﴿يَوْمَئِذٍ يَتَبَعُونَ الْدَّاعِ لَا عِوْجَ لَهُ﴾** فيجتمع الناس ليوم عظيم **﴿يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزَوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾** [ابراهيم: ٤٨] يبرزون للواحد القهار ويقومون له؛ في ساحة لا جبال فيها ولا حُفر، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، ولا مساكن فيها ولا أعلام، بل هي كما روى سهل بن سعد **رضي الله عنه** عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، قال: «يُحشر الناس يوم القيمة على أرض بيضاء عفراء، كقرصنة النقي، ليس فيها علم لأحد»^(١) ومعنى ليس فيها علم لأحد أي هي مستوية ليس فيها سكن ولا بناء ولا أثر لبشر.

فيجتمع الناس في ساحة الحشر، كل الناس من لدن آدم إلى نهاية الدنيا، فيقومون طويلا في موقف صعب، حيث تدنو الشمس، ويشتد الحر، فيكثر العرق الذي يرشح من الجسم، كما روى ابن عمر عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: **﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [المطففين: ٦] قال: «يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠)

(٢) مسلم (٢٨٦٢)

الآمنون من الفزع الأكبر:

في ذلك المقام الذي يجتمع فيه الخوف والفزع والحر وطول المقام والعطش، تفيء ثلاثة من الناس إلى ظلٍ يظلهم الله به، ظليل، بعيد عن هذه الشدة والهول، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله؛ اجتمعوا عليه وتفرقوا عليه، ورجل طلبه امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شمالي ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»^(١). وفي البخاري^(٢) عن النبي ﷺ «من أنظر معسراً أظلله الله في ظله».

وقد ذكر الله في كتابه العزيز أن من عباده من سيُجنب الفزع في ذلك اليوم، كما قال سبحانه: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَمَّا خَرَجَ مِنْهَا وَهُمْ إِنْ فَزَعَ يَوْمَئِلْ عَامِنُونَ» وقال «لَا يَخْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ» وقال «إِنَّ يَأْتِي فِي الْأَيَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَمَةِ» فاللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

الحوض:

في مقام الشدة ذاك، هناك موعد شريف للمؤمنين من أعظم الموعيد وأجلها، ألا وهو: موعد لقاء النبي ﷺ على الحوض،

(١) صحيح البخاري (٦٦٠)

(٢) (٣٠٠٦)

موعد اللقاء بشرف الخلق عند مورد الماء الصافي العذب في يوم العطش الأكبر، كم هو جميل ذلك اللقاء، وكم تنتفع النفوس شوقاً إليه، وهو ﷺ كان يبشر أصحابه بذياك اللقاء، ويمنيهم به في بعض حديثه حين يذكر شيئاً من الشدة التي ستلاقيهم، كما في قوله للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»^(١) وقوله حين زار شهداء أحد «إن موعدكم الحوض»^(٢) فيا لله كيف سيكون ذاك اللقاء؟ وأما صفات الحوض، فقد أخبر بها النبي ﷺ وبشر، فمن ذلك ما يلي:

- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحة أطيب من المسك، وكزانه كنجوم السماء من شرب منها، فلا يظماً أبداً». (البخاري ٦٥٧٩)
- وعن ثوبان أن نبي الله ﷺ سئل عن شراب الحوض، فقال: «أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يغتّ^(٣) فيه ميزابان، يمدانه من الجنة؛ أحدهما من ذهب، والآخر من ورق» (مسلم ٢٣١٠)
- وعن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال عن الحوض «من ورده فشرب منه لم يظماً بعدها أبداً» (مسلم ٢٢٩٩)

(١) البخاري (٣٧٩٢)

(٢) البخاري (٤٠٤٢)

(٣) أي: يصبت

وقال القاضي عياض رَحْمَةُ اللَّهِ: أحاديث الحوض صحيحة، والإيمان به فرض، والتصديق به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة، لا يُتأول، ولا يختلف فيه، قال القاضي: وحديثه متواتر النقل، رواه خلائق من الصحابة»^(١).

طلب الشفاعة لبدء الحساب:

نعود إلى المشهد العام العسر الصعب الشديد المرهق، فإن الناس يطول المقام بهم في ساحة الحشر ويبلغ الكرب بهم مبلغاً لا يطيقونه ولا يحتملونه، فيلتفتون باحثين عنمن يمكن أن يشفع لهم إلى ربهم ليبدأ الحساب، ويفصل لهم في أمرهم، فيعلمون حينذاك أن أسيادهم وملوكهم وكبراءهم في الدنيا لا حظ لهم في الآخرة، وأن الذين لهم الحظ الأوفر هم الأنبياء، فيتوجهون إليهم طالبين إياهم أن يشفعوا إلى ربهم لا في دخول الجنة، وإنما فقط لينتهي وقوفهم الطويل ذاك، وقد بين النبي ﷺ ما الذي سيجري حينها على وجه التفصيل، كما أخرج الإمام البخاري في صحيحه^(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيمة، وهل تدرؤن مم ذلك؟

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (٥٣/١٥) إحياء التراث

(٢) (٤٧١٢)

يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد،
يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من
الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا
ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنتظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول
بعض الناس لبعض: عليكم بأدم. فيأتون أدم ﷺ، فيقولون له:
أنت أبو البشر؛ خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر
الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن
فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول أدم: إن ربى قد غضب اليوم
غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن
الشجرة، فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا
إلى نوح. فيأتون نوحا، فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل
إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى
ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربى ﷺ قد غضب
اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد
كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى
غيري، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم،
أنتنبي الله، وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا
ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضبا
لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنني قد كنت كذبت
ثلاث كذبات، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى
موسى. فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله،

فضلك الله برسالته، وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك،
ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا
لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنني قد قتلت نفسا
لم أمر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى
عيسى ابن مريم فـيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى، أنت
رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وكلمت الناس في
المهد صبيا، اشفع لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى:
إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب
بعده مثله - ولم يذكر ذنبا - نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري،
اذهبوا إلى محمد ﷺ. فـيأتون محمدا ﷺ، فيقولون: يا محمد،
أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من
ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟
فأنطلق، فـاتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربى ﷺ، ثم يفتح الله
علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي،
ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واسفع تشفع.
فأرفع رأسي، فأقول: أمتى يا رب، أمتى يا رب. فيقال:
يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن
من أبواب الجنة. وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من
الأبواب. ثم قال: والذى نفسي بيده، إن ما بين المصارعين من
مصاريع الجنة كما بين مكة، وحمير، أو كما بين مكة، وبصرى'

بدء الحساب والقضاء بين الناس وعرض الأعمال والموازين والصحف:

يوم الحساب يوم طويل مليء بالأحداث والأهوال، فيه السوء على الكافرين، والخير للمؤمنين، فيه البكاء والعويل، والتغابن والثبور، وفيه كذلك: الفرح والسرور، والسعادة والعجب.

- يجيء الله تبارك وتعالى بعد شفاعة النبي ﷺ ليقضي بين العباد: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ ذَكَّا دَكَّا ۚ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَّا ۚ صَفَّا ۚ وَجَاءَهُ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذَكِرُ الْإِنْسَنُ وَأَنَّ لَهُ أَلْذَكَرَى﴾ [الفجر: ٢١-٢٣] وقال سبحانه ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمِينَةَ﴾.

- يؤتى بجهنم تجرّها الملائكة فيراها الخلق ﴿وَجَاءَهُ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ وقال النبي ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»^(١)

- يحاسب الله البشر فرداً فرداً، كما قال سبحانه ﴿فَوَرَبِّكَ لَسْأَلَنَّهُمْ أَجَمِيعَنَّ ۚ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بيته وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه،

(١) رواه مسلم (٢٨٤٢)

فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة^(١).

- والحساب أنواع: فمنه الحساب البسيط - وهو العرض -

﴿فَمَّا مَنْ أُوفِيَ كِتَبَهُ بِيمِينِهِ ﴾٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهناك حساب عسير، تعرض فيه الأعمال وتناقش، كما روى عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس أحد يحاسب يوم القيمة إلا هلك». فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: «فَمَّا مَنْ أُوفِيَ كِتَبَهُ بِيمِينِهِ ﴾٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرض، وليس أحد ينافش الحساب يوم القيمة إلا عذب»^(٢).

- ويكتتب بعض الناس في النقاش مع ربهم ظانين أنهم سينجون منه! فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة^(٣) رضي الله عنه في سياق وصف النبي ﷺ للنقاش بين الله وعبدة، قال: «فيلقى العبد فيقول: أي فُلٌ^(٤)، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسرخ لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلـى. قال: فيقول: أفظننت أنك ملقمي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني، فيقول: أي فُلٌ،

(١) البخاري (٧٥١٢)

(٢) البخاري (٦٥٣٧)

(٣) (٢٩٦٨)

(٤) يعني: يا فلان

ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، أي رب. فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب، آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقـتـ. ويـثـنـيـ بـخـيرـ ماـ اـسـطـاعـ،ـ فيـقـولـ:ـ هـاـهـاـ إـذـنـ.ـ قـالـ:ـ ثـمـ يـقـالـ لـهـ:ـ الـآنـ نـبـعـثـ شـاهـدـاـ عـلـيـكـ.ـ وـيـتـفـكـرـ فـيـ نـفـسـهـ:ـ مـنـ ذـاـ الـذـيـ يـشـهـدـ عـلـيـ؟ـ فـيـخـتمـ عـلـىـ فـيـهـ،ـ وـيـقـالـ لـفـخـذـهـ وـلـحـمـهـ وـعـظـامـهـ:ـ اـنـطـقـ.ـ فـتـنـطـقـ فـخـذـهـ وـلـحـمـهـ وـعـظـامـهـ بـعـمـلـهـ،ـ وـذـلـكـ لـيـعـذـرـ مـنـ نـفـسـهـ،ـ وـذـلـكـ الـمـنـافـقـ،ـ وـذـلـكـ الـذـيـ يـسـخـطـ اللـهـ عـلـيـهـ»

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَهُّدُ عَلَيْهِمْ أَلْسُنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾١٤﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفَّهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَقَاتُلُوا لِجُنُودِهِمْ لِمَ شَهَدُوكُمْ عَلَيْنَا قَاتُلُوا أَنْطَقُنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي موضع ثالث: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشَهُّدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

- يوضع الميزان فتوزن أعمال الإنسان؛ حسناته وسيئاته، كما قال سبحانه: ﴿وَنَصْعَدُ الْمَوَازِينَ الْقَسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ وقال سبحانه ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَنَثْلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾١٥﴿ وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنْفُسُهُمْ بِمَا كَانُوا يَأْتِيُنَا يَظْلَمُونَ﴾

- يُفاجأ الإنسان بأن كل شيء من عمله مكتوب، ألفاظه وأعماله ومعتقداته، خطواته ونظراته، سعيه وكده، هزله وجده، كل شيء يجده أمامه، كما قال الله سبحانه ﴿وَرُوْضَعَ الْكِتَبُ فَرَّى
الْمُجْرِمِينَ مُشَفِّقِينَ مِمَّا فِيهِ وَقُوْلُونَ يَوْلَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَبِ لَا يُغَادِرُ
صَغِيرَةً وَلَا كِبِيرَةً إِلَّا أَحْصَنَهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ
أَحَدًا﴾ وقال سبحانه ﴿وَنَزَّعَ الْمَوْزِنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا نُظْلِمُ
نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْكَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَنَا بِهَا وَكَفَ إِنَّا
حَسِّينِ﴾

- ثم يُعطى الإنسان كتابه، فإن أخذه بيديه فيا لهنائه وسعده فلا حبه وفوزه وسعادته، ينطلق فرحاً، منادياً مسروراً : ﴿هَاقُمُ افْرَمُوا
كِتَبِيهِ﴾ وإن أعطيه بشماله فقد خسر كل شيء، وانتهى بالنسبة إليه كل شيء، كما قال تعالى : ﴿وَمَا مَنْ أُوفِيَ كِتَبَهُ بِشَمَالِهِ فَقُولُ يَتَبَيَّنِي لَمْ
أُوفَ كِتَبِيهِ ۝ وَمَنْ أَدْرِ مَا حِسَابِهِ ۝ يَتَبَيَّنَهَا كَانَتِ الْفَاضِيَةَ ۝ مَا أَغْفَنَ
عَيْنَ مَالَيْهِ ۝ هَلَّكَ عَيْنَ سُلْطَانِيَةَ ۝﴾

- ثم يؤخذ بأهل النار إلى النار نسأل الله العافية.

الصراط:

بعد ساحة الحشر، وفي طريق التوجه إلى الجنة، وبعد أن يُلقى بأهل النار الذين هم أهلها في النار، يجتاز البقية من فوق الصراط الذي سيكون آخر تصفية وغربلة، وهو جسر مضروب على جهنم، يمر الناس فوقه كُلّ بحسب عمله وإيمانه، حتى

يسقط بعضهم ممن لم يُسعفه عمله للإجازة والعبور. فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «يُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وفي جهنم كالاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟» قالوا: نعم. قال: «فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخرب ثم ينجو».

وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق. قال: قلت: بأبي أنت وأمي، أي شيء كمر البرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم على الصراط، يقول: رب، سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل، فلا يستطيع السير إلا زحفاً. قال: وفي حافتي الصراط كالاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوش في النار، والذي نفس أبي هريرة بيده، إن قعر جهنم لسبعون خريفاً»^(١)

(١) مسلم (١٩٥)

الشفاعة في الخروج من النار:

لا يستطيع أحد أن يشفع عند الله كشفاعة أتباع الملوك عند الملوك لمجرد وجود جاه عندهم يشفعون! لا، وإنما الشفاعة يوم القيمة تكون أولاً بإذن الله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عَنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ثم تكون فيمن ارتضى الله -وهم أهل التوحيد- ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَنَ﴾ وأما غير الموحد فلا تنفعه الشفاعة، ولا يأذن الله في الشفاعة لهم.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله سيخرج من أهل النار أقواماً ممن في قلوبهم خير من أهل التوحيد، ممن استحقوا النار بذنبهم، ممن لم تكن لهم حسناً كافية في الدنيا فيطهرون في جهنم، ثم يُخرّجون منها، ويدخلون الجنة، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ بقوله: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار بأثر السجود، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحنوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، هو آخر أهل النار دخولاً الجنة، فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار؛ فإنه قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاها.

فيدعوك الله بما شاء أن يدعوك، ثم يقول الله: هل عسيت إن
 أعطيتك ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسألك
 غيره. ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف الله وجهه
 عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها، سكت ما شاء الله أن
 يسكت، ثم يقول: أي رب، قدمني إلى باب الجنة. فيقول الله
 له: ألسنت قد أعطيت عهودك ومواثيقك ألا تسألني غير الذي
 أعطيت أبداً، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك؟ فيقول: أي رب.
 ويدعوك الله حتى يقول: هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل
 غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره. ويعطي ما شاء من
 عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام إلى باب الجنة،
 انفهقت له الجنة، فرأى ما فيها من الحبرة والسرور، فيسكت ما
 شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، أدخلني الجنة.
 فيقول الله: ألسنت قد أعطيت عهودك ومواثيقك ألا تسأل غير ما
 أعطيت؟ فيقول: ويلك يا ابن آدم، ما أغدرك. فيقول: أي رب،
 لا أكون أشقي خلقك. فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا
 ضحك منه قال له: ادخل الجنة. فإذا دخلها، قال الله له: تمته.
 فسأل ربه وتمنى، حتى إن الله ليذكره، يقول كذا وكذا حتى
 انقطعت به الأماني. قال الله: ذلك لك ومثله معه». أخرجه
 الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما^(١)

(١) البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)

وهذه الشفاعة ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل هي لكثير من المؤمنين، وأما الخاصة به - وهي المقام المحمود الذي وُعدهـ فهي للأمم كلها في الفصل والقضاء والحساب بعد طول الموقف والهول كما مرّ معنا . وهنا يأتي شيء من أثر الصحبة الصالحة في الدنيا ، فإن أناساً من المؤمنين سيشفعون لمعارفهم وأصدقائهم من أهل التوحيد - بإذن الله تعالىـ - كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ في صحيحي البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه حين ذكر نجاة من نجا من المؤمنين على الصراط ، قال : «إِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوا فِي إِخْرَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبُّنَا إِخْرَانُنَا ، كَانُوا يَصْلُونَ مَعَنَا ، وَيَصْوِمُونَ مَعَنَا ، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا . فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا ، فَمَنْ وَجَدَتْمُ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرُجُوهُ . وَيَحْرُمُ اللَّهُ صُورَهُمْ عَلَى النَّارِ ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدْمِهِ ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ عَرْفَوْا ، ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا ، فَمَنْ وَجَدَتْمُ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نَصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرُجُوهُ . فَيَخْرُجُونَ مِنْ عَرْفَوْا ، ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا ، فَمَنْ وَجَدَتْمُ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرُجُوهُ . فَيَخْرُجُونَ مِنْ عَرْفَوْا - قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: إِنَّ لَمْ تَصْدِقُونِي فَاقْرُؤُوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنَّ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِّفُهَا﴾ - فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، فَيَقُولُ الْجَبَارُ: بَقِيتْ شَفَاعَتِي . فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ ، فَيَخْرُجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتَحَنُوا ، فَيَلْقَوْنَ فِي نَهْرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ ، يَقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ . فَيَنْبَتُونَ فِي حَافَتِيهِ كَمَا تَبَتْ

الحبة في حميل السيل، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة إلى جانب الشجرة، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر، وما كان منها إلى الظل كان أبيض، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ، فيجعل في رقابهم الخواتيم، فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن، أدخلهم الجنة بغير عمل عملاه، ولا خير قدموه. فيقال لهم: لكم ما رأيتم، ومثله معه»

دخول الجنة:

وعد الله عباده المؤمنين بالجنة، والإيمان بها إيمان بالغيب، كما قال الله سبحانه: ﴿جَنَّتٍ عَدِّنِ الَّتِي وَعَدَ الرَّجْنَنُ عِيَادَهُ يَلْقَيْنَ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْيَأً﴾ ثم أعددها وهياها وزينها وعرفها لهم، حتى أصبحت على صورة لا يمكن لبشر أن يصفها، وفيها من النعيم ما لم يخطر -حتى في الخيال- على قلب إنسان، كما ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ فُرَّأَ أَعْيُنٍ﴾»^(١) وقد ذكر الله في كتابه كثيرا من الآيات في وصف الجنة، وكذلك النبي ﷺ في عشرات أو مئات الأحاديث، وكتب العلماء في وصف الجنة كتاباً خاصة، منها: كتاب حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح للإمام

(١) صحيح البخاري (٣٢٤٤)

ابن قيم الجوزية رحمه الله ، ولأن المقام هنا مختصر ولا يمكنني استيفاء صفات الجنة ، ولا كثيرا منها ، فسأكتفي بثلاثة أحاديث صححها فقط ، لعلها تقرب شيئا من الصورة ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا الجنة و يجعلنا من أهلها .

١- عن أنس عن ابن مسعود رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكتبوا مرة، وتفسعه النارمرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: أي رب، أدنني من هذه الشجرة، فلا تستظل بظلها، وأشرب من مائها. فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم، لعلي إن أعطيتكها سألكني غيرها، فيقول: لا يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذرها، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدينه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأشرب من مائها، وأستظل بظلها لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدنا أن لا تسألني غيرها، فيقول: لعلي إن أديننك منها تسألني غيرها، فيعاهده ألا يسأله غيرها، وربه يعذرها، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدينه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين. فيقول: أي رب، أدنني من هذه؛ لاستظل بظلها،

وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ قال: بلى يا رب، هذه لا أسألك غيرها، وربه يعذرها؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليها، فيدريه منها، فإذا أدناه منها، فيسمع أصوات أهل الجنة. فيقول: أي رب، أدخلنها. فيقول: يا ابن آدم، ما يصربني منك، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أستهزئ مني، وأنت رب العالمين؟» فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ. فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: «من ضحك رب العالمين حين قال: أستهزئ مني، وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر»^(١). وفي رواية في الصحيح لحدث ابن مسعود من طريق عبيدة عنه: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار رجل يخرج منها زحفا، فيقال له: انطلق، فادخل الجنة. قال: فيذهب، فيدخل الجنة، فيجد الناس قد أخذوا المنازل. فيقال له: أتذكرة الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم. فيقال له: تمن، فيتمنى. فيقال له: لك الذي تمنيت، وعشرة أضعاف الدنيا. قال: فيقول: أتسخر بي، وأنت الملك؟» قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

(١) صحيح مسلم (١٨٧)

٢- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «يُؤْتَى بِأَنْعَمَ أَهْلَ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قُطْ؟ هَلْ مِنْ بَكْ نَعِيمٌ قُطْ؟ فَيُقَوَّلُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبَّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قُطْ؟ هَلْ مِنْ بَكْ شَدَّةٌ قُطْ؟ فَيُقَوَّلُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبَّ، مَا مِنْ بَيْ بُؤْسٍ قُطْ، وَلَا رَأَيْتَ شَدَّةً قُطْ»^(١).

٣- عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَقُولُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى: تَرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تَبْيِضْ وَجْهَنَا؟ أَلَمْ تَدْخُلَنَا الْجَنَّةَ وَتَنْجُنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: «فَيُكَشِّفُ الْحِجَابَ، فَمَا أَعْطَوْا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ طَه». وَفِي رَوَايَةٍ: ثُمَّ تَلَّاهُ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لِلَّذِينَ أَحَسَّنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾^(٢).

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَنْبُوُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَتَعَمَّ أَجْرُ الْعَدَلِيَّاتِ﴾، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِ يَسَاءَتْهُنَّ﴾ ٢٥ ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ٢٦ ﴿فَمَنِّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ ٢٧.

(١) صحيح مسلم (٢٨٠٧)

(٢) صحيح مسلم (١٨١)

جهنم:

للطغاة يوم ينالون فيه العقوبة، وللعاصين مكان يذوقون فيه جزاءهم، وهو مكان مهول مخيف، عذابه لا يُطاق، وجحيمه لا يُحتمل: ﴿فِيَوْمٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾^(٢٥) ﴿وَلَا يُؤْفَقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾^(٢٦)

وهي ليست ناراً عادية، بل حرارتها مضاعفة، وقعرها بعيد، وظلمتها شديدة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزءاً من سبعين جزءاً من نار جهنم». قيل: يا رسول الله، والله إنْ كانت لكافية! قال: «فضلت عليّهن بتسعة وستين جزءاً، كلّهن مثل حرها»^(١)

وفيها أصناف من النكال والعقاب، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنَّكَلَّا وَجَحِيْمًا﴾^(٢٧) ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةً وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٢٨) ولذلك سماها الله بأسماء متعددة، كل اسم منها يدل على معنى ووصف وأثر لها، فمن أسمائها في القرآن: سقر، ولظى، والسعير، والحطمة، والجحيم، وجهنم، والنار.

ويجعل الله أجسام الكفار فيها أكبر من المعتاد لكي يذوقوا العذاب، بالإضافة إلى أنه يبدل جلودهم كلما احترقت، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا يَنْهَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلُّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

(١) صحيح البخاري (٢٨٤٣)

ويتمنى من فيها الموت بكل وسيلة لكي ينجو من العذاب،
ولكن هيهات فقد فات الأوان، ولا مجيب لهم ولا مغيث،
ولا يكلمهم الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فنسأله العافية.

هذا؛ وإن الموفق حقاً من رزقه الله الاهتمام بمعرفة ما
يُسبب دخول النار من الظلم والشرك والغش وترك الصلاة ومن
القول على الله بلا علم ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر وغير ذلك من المنكرات، ثم رزقه العمل على اجتنابها.

الركن السادس من أركان الإيمان الإيمان بالقدر خيره وشره

لَا يُقْدِرُ اللَّهُ شَرًا مَحْضًا :

أخبر النبي ﷺ في حديث جبريل أن من أركان الإيمان: «أن تؤمن بالقدر خيره وشره» والسؤال هنا: هل يكون من أقدار الله ما هو شر؟

الجواب: أنه قد يكون شراً بالنسبة لمن وقع عليه القدر لا أنه شرٌّ خالص من كل الجهات، فلله تعالى الحكمة البالغة، وهو يعلم ما لا نعلم، فقد يُقدِّر شيئاً ظاهره الشر ولكن يبني عليه خير كثير.

مثال: حين يفقد الإنسان حبيباً أو قريباً، فإنه بتقديره قد يتساءل لماذا؟ وقد يعترض، وقد يرى ذلك شراً خالصاً، بينما ذلك في تقدير الله له معانٍ كثيرة: منها الابتلاء، ومنها تكفير

السيئات، ومنها رفع الدرجات، ومنها العقوبة، ومنها القدر المحسن والأجل، ومنها ما لا نعلم. فلا يصح للإنسان -المحدود بالعلم- أن يعترض على الله الذي له العلم الكامل الشامل سبحانه.

مثال آخر: يحرض أحدهنا على عمل معين، أو زواج، أو حتى لعبه بالنسبة للأطفال، ونبذل كل شيء لنظره بما نريد، ثم قد نكتشف بعد مدة أن هذا الخيار الذي تعينا لأجله ليس هو الخير، فكيف بعلم الله الذي يعلم المستقبل قبل وقوعه؟!

ماذا يعني الإيمان بالقدر؟ ومتى تكون مؤمنين بالقدر؟

أول شيء يجب علينا تجاه الإيمان بالقدر أن نؤمن بأنه لا يحدث شيء في هذه الدنيا إلا وقد قدره الله تعالى وكتبه قبل خلق السماوات والأرض، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»^(١)

ثم بعد ذلك هناك مقامات تجاه ما يؤلمنا من الأقدار، أحدهما واجب، فمن لم يتحقق فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه بالقضاء والقدر ويكون مستحضاً للعقوبة، والثاني اختلف العلماء في وجوبه وإن لم يختلفوا في أنه مقام عظيم محظوظ عند الله تعالى.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢٦٥٣)

• فالاول الصبر، وفيه معنى الممنوع والحبس، أي أن تمنع وتحبس نفسك عن الجزع والتسخط، وعن شق الجيوب والألبسة، وعن لطم الخدود ونفخ الشعور وحلق الرؤوس، ونحو ذلك. فيكتم الصابر ألمه، ولا يقول إلا ما يرضي ربه.

• والثاني الرضا. وهو مبني على تفويض الأمر لله، والتسليم له بأن ما يُقدّره فهو خير، فتجد الراضي منشرح الصدر، مطمئناً مسلماً، وهو صابر في نفس الوقت، أي أن مقام الرضا يمر بالصبر ويزيد عليه، فكل راضٍ صابر وليس العكس.

وفي كلا الحالتين لا يكون دمع العين وحزن القلب معارضاً لهما، فهما من الرحمة التي جعلها الله في قلوب عباده.

ما ثمرات الإيمان بالقدر؟

١- الصبر على المصائب والكوارث:

لأنه يؤمن أن المصيبة مقدرة، وأنه لا يستطيع مغالبة القدر، وأن الله حكيم فيما يقضي، ففيه السخط؟! وأنه يؤمن بأنه إن صبر فإن له أجرًا عظيماً، فيتحمل الألم لأجل الأجر.

وأما من لا يؤمن بقضاء ولا قدر ولا أجر ولا ثواب ولا عقاب فسيجد صعوبة كبيرة في الصبر.

٢- السكينة والطمأنينة والرضا:

وهذه الطمأنينة هي التي يبحث عنها أكثر أهل الأرض، ولكنها لا تتحقق إلا للمؤمن، المؤمن الذي يعلم أن ما أصابه فهو

خير له، فهو لا يكتفي بكتفه نفسه عن الجزع، وإنما كذلك يرضي ويسّم، فينزل الله عليه السكينة والطمأنينة.

وتأمل معى هذا الحديث العظيم الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه^(١) عن صهيب، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبنا لأمر المؤمن، إنّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له».

٣- الأجر والثواب:

المؤمن يفهم ويوقن بأن نعيم الجنة سيُنسنه كل بؤس وشقاء مر به، كما في صحيح مسلم^(٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيمة، فبصيغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً؟ هل مر بك نعيم؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فبصيغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

كما أن المؤمن يعلم أنه إذا ظلم فلم يستطع أن يأخذ حقه في الدنيا فإنه سيأخذه في الآخرة، وهذا كله يبعث على الطمأنينة واليقين والسكون.

(١) (٢٩٩٩)

(٢) (٢٨٠٧)

٤- إحسان التصرف واتخاذ القرار وعدم الطيش وقت المصيبة:

إذا تحققت الآثار السابقة من اليقين والرضا والطمأنينة فإن المسلم ولو حَزِنَ، أو تألم لمصيبة فإنه لا يفقد صوابه، ولا يطيش أو يرتكب حماقات بسبب المصيبة، فكثير من الناس إذا خسروا شيئاً دنيوياً مهماً ولم يكن لديهم إيمان واحتساب، فإنهم يرتكبون ما لا تُحِمِّد عاقبته إما من الضرب أو التكسير أو الإتلاف أو حتى القتل أو الانتحار.

والمؤمن مُسلِّم مطمئن محتبس.

ما أنواع كتابة الأقدار وقسمها؟

كتب الله ﷺ الأقدار كلها، من قبل أن تُخلق السماوات والأرض -كما مرّ معنا-، غير أن هناك أنواعاً متعددة من الكتابة والتقدير:

١- الكتابة الشاملة لمقادير الخلائق، وهي السابقة لخلق السماوات والأرض، وهي في اللوح المحفوظ، كما قال الله تعالى: ﴿مَا فَرَّطَنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال المصطفى عليه الصلاة والسلام «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»^(١).

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢٦٥٣)

٢ - قسم الأقدار المتعلقة بكل سنة وعام وفرقها، كما قال تعالى: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٌ» [البخاري: ٤] أي في ليلة القدر، قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية (أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاحد، والضحاك، وغير واحد من السلف) ^(١)

٣ - كتابة أقدار الجنين في بطن أمه، كما في صحيح البخاري ^(٢) عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَكُلَّ بَالِرْحَمِ مِلْكًا يَقُولُ: يَا رَبَّ نَطْفَةٍ، يَا رَبَّ عَلْقَةٍ، يَا رَبَّ مَضْغَةٍ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِي خَلْقَهُ، قَالَ: أَذْكُرْ أَمْ أَنْشِئْ؟ شَقِيقٌ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجْلُ؟ فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ».

هل يصح لأحد أن يحتاج على ذنبه بالإيمان والقدر؟

لا يصح لأحد أن يبرر انحرافه ومعصيته بالقدر، لأن الإنسان له إرادة حقيقة يستطيع الاختيار بها كما قال الله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»

(١) تفسير ابن كثير للآية ٤ من سورة الدخان

(٢) (٣١٨)

وهي الإرادة التي لأجلها خلق الله الجنة والنار، وأرسل الرسل بالحجج والبيانات؛ وإلا فإذا لم تكن عند الإنسان إرادة فما الفائدة من إرسال الرسل وإقامة الحجج؟

ونحن جميعاً نشعر بقدرتنا على الاختيار في أمور حياتنا، ولا نرضى ولا نقبل باحتجاج أحد علينا بالقدر، فلو أن أحداً سرق منا شيئاً ثم قال: آسف! هذا قضاء وقدر! لما قبلنا، ولأمكنا به وعاقبناه أو قدناه إلى الشرطة.

وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «احتاج آدم وموسى»؛ فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فقال النبي صلوات الله عليه وسلم: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»^(١). أي غلب آدم موسى في حجته، فهذا احتجاج بالقدر على المصيبة وليس على المعصية، والمصيبة هنا هي: الخروج من الجنة، وهي ليست من إرادة آدم، وإنما بقدر الله، وأما أكله من الشجرة فهو بإرادته فلذلك قال برأينا ظلمنا أنفسنا.

ما الأمور المعينة على الصبر والرضا بالقدر؟

١ - تذكر العاقبة، وما أعده الله عز وجله للصابرين، كما قال صلوات الله عليه وسلم: «وَبَشِّرُ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَبْتَهُمْ مُّصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم (٢٦٥٢) واللفظ له

وَإِنَّا إِلَيْهِ رَجُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوةٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهَتَّدُونَ ﴿١٦﴾ فالصابرون يرحمهم الله ويصلّي عليهم -أي يذكرهم بالثناء في الملا الأعلى- .

٢- تذكر محبة الله للصابرين، وأن المصيبة قد تكون هي السبب الموجب لمحبة الله للعبد إذا أتبعها بالصبر والإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ .

٣- اليقين بأن الله عَزَّلَ عَلِيم حكيم، فإذا قضى شيئاً فهو خير من جهة تقديره عَزَّلَ ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنَّهُ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

٤- الفهم التام بأن الجزع لا يفيد، وأن السخط وبال على الإنسان، يضيق الصدر، ويکدر الخاطر، ويزيد الذنب، ولا يرد شيئاً، فمن يسخط على قضاء الله فإنه لن يغير في الابلاء شيئاً، بل يضر نفسه .

القسم الثالث

ما يضاد الإيمان ويناقضه

الأبواب المضادة للإيمان

من المهم أن يعرف الإنسان الأبواب التي تضاد إيمانه، ليستفيد
أمرین:

- الأول: ليحذرها ويجتنبها، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه.
- الثاني: ليزداد بصيرة في معالم الإيمان وحدوده؛ وبضدتها
تميّز الأشياء.

وهذا من أهم ما تميّز به أصحاب رسول الله ﷺ أنهم
عرفوا الشرك وحدوده والإيمان وحدوده، فالترزوا بالإيمان على
بصيرة، واجتنبوا ما يضاده عن علم وفهم وإرادة.

ولذلك كان حذيفة رضي الله عنه يسأل رسول الله ﷺ عن الشر
ليحذرها ويجتنبها ويعرف علاماته ويميزها، كما ثبت في صحيح
البخاري^(١).

(١) (٣٦٠٦)

وتأمل معي هذا الكلام المهم من الإمام ابن تيمية رحمه الله لدرك أهمية معرفة حدود الشر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شر، فاما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما أنكره الذي عرفه .. ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علِمهُ، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم .. ولهذا كان الصحابة رضي الله عنه أعظم إيمانا وجهاداً ممن بعدهم، لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر، لما علموا من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي ... ولهذا يقال: والضد يُظهر حسنة الضد). انتهى كلامه رحمه الله^(١)، ولا شك أنه لا يقصد الحث على الوقوع في الشر بغرض التعرّف عليه، وإنما غاية ما يريد قوله ابن تيمية في هذا النص هو ضرورة معرفة الشر وحدوده ليتميز الحق وحدوده، ولذلك صاحب الحق على بصيرة، ولذلك له من بغض الكفر والشر بقدر معرفته بقيمهما.

الكفر والشرك والنفاق:

حين نمر على ذكر الشرك والكفر والنفاق -ونحن نتلوا كتاب الله أو نقرأ سنة نبيه صلوات الله عليه-، فإننا نتخيل أشياء في غاية البعد عنا، ولا نظن أنها يمكن أن تهددنا في يوم من الأيام، وربما

(١) الفتاوى (٣٠١ / ١٠)

يكون ذلك لجهلنا بكثير من التفاصيل المتعلقة بهذه الأسماء الشرعية.

وفي الحقيقة فإن كلاً من الكفر والشرك والنفاق، فيه درجات، فهناك الكفر الأكبر والكفر الأصغر، والشرك الأكبر والأصغر، والنفاق الأصغر والأكبر.

والأصغر من هذه الأسماء ليس خاصا بالكافار، بل يمكن أن يقع فيه المسلمون، وهو يقود إلى الأكبر، فالرياء مثلاً شرك أصغر وكثيراً ما يقع فيه أناس من المسلمين، وإخلال الوعد والكذب في الحديث وخيانة الأمانة من صفات المنافقين، وهي نفاق أصغر وكثيراً ما يقع فيها أناس من المسلمين، ولذلك فإن الصحابة لصدق إيمانهم وتقواهم كانوا يخافون النفاق على أنفسهم مع كل ما لديهم من صلاح وعمل، وتجد أحدهما اليوم آمناً وكأنه قد أخذ مفاتيح الجنة بيديه.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن أبي مليكة قال: أدركت ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل^(١) وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين، لعلهم بدقه وجله وتفاصيله وجمله، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خسوا أن يكونوا من جملة المنافقين، قال عمر بن

(١) قبل حديث رقم (٤٨) في البخاري

الخطاب لحذيفة رضي الله عنه: يا حذيفة، نشتك بالله، هل سماني لك رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه منهم؟ قال: لا، ولا أزكي بعده أحداً.. . وذكر عن الحسن البصري: ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن، ولقد ذكر عن بعض الصحابة أنه كان يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق، قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن خاشعاً والقلب ليس بخاشع.

تالله لقد ملئت قلوب القوم إيماناً ويقيناً، وخوفهم من النفاق شديد، وهمهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وهم يدعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل^(١).

فلا بد من معرفة حدود هذه الأسماء والأوصاف، وإدراك تفاصيلها وأنواعها، لنحذر منها ونجتنبها. وقد وجدت كلاماً سهلاً ميسراً للإمام ابن القيم في أقسام الكفر والشرك والنفاق وذلك في كتابه الجميل: مدارج السالكين، فسأعتمد أصلاً وأنقله باختصار، ثم أزيد بعض التوضيحات، والنقولات كذلك.

قال رحمة الله تعالى: (الكفر نوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر. فالكفر الأكبر هو الموجب للخلود في النار، والأصغر موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود)، كما في قوله صلوات الله عليه وآله وسلامه في الحديث: «اثنتان في أمتي، هما بهم كفر: الطعن في النسب،

(١) مدارج السالكين (١/٦٢٣-٦٢٤) ط: طيبة

والنهاية» وقوله: «لا ترجعوا بعدي كفراً يضرب بعضكم رقاب بعض»

وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب فهو اعتقاد كذب الرسل، وهذا القسم قليل في الكفار، فإن الله تعالى أيد رسle، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة، وأزال به المعدنة، قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَحَمَدُواٰ بِهَا وَأَسْيَقْتُهَا أَفْسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [الثأْرُ: ١٤] وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّمَا لَا يُكَبِّرُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَغْيِرُونَ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وإن سمي هذا كفر تكذيب أيضاً فصحيح، إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار فنحو كفر إبليس، فإنه لم يجدد أمر الله ولا قبله بالإنكار، وإنما تلقاء بالإباء والاستكبار، ومن هذا: كُفُرُ من عَرَفَ صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباء واستكباراً، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿أَتَقْوِينُ لِشَرِّنِنَ مِثْنَانِ وَقَوْمَهُمَا لَنَا عَدِيدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقول الأمم لرسلهم: ﴿إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْنَانٌ﴾ [ابراهيم: ١٠] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ نَعْوَذُ بِطَغْوَتِهَا﴾ [البقرة: ١١] وهو كفر اليهود كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩] وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]

وأما كفر الإعراض فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول، لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به بالبته.

وأما كفر الشك فإنه لا يجزم بصدقه ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك، لأنها مستلزمة للصدق، ولا سيما بمجموعها، فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق فهو أن يظهر بسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر، وسيأتي بيان أقسامه إن شاء الله تعالى.

وأما الشرك -ولا يزال الكلام لابن القيم رحمه الله- فهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندا، يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿تَالَّهُ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٩٧] [البيهقي]: مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربه، ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحبب ولا تميت، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال

أكثر مشركي العالم، والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك، وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبعله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه، ورضي قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخدوا من دون الله شفعاء، فإنه سبحانه يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه، فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعاً من دون الله ربه ومولاه.

وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال «من حلف بغير الله فقد أشرك» وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وإنما بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكلاً على الله وعليك، ولو لا أنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركاً أكبر، بحسب قائله ومقصده، وصح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل قال له: ما شاء الله وما شئت: «أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده» وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

والشرك أنواع كثيرة، لا يحصيها إلا الله، ولو ذهبنا نذكر أنواعه لاتسع الكلام أعظم اتساع، ولعل الله أن يساعد بوضع كتاب فيه، وفي أقسامه، وأسبابه ومباديه، ومضرته، وما يندفع به.

وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتهناً منه، وهو لا يشعر، فإنه أمر خفي على الناس، وكثيراً ما يخفى على من تلبس به، فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر، وأصغر: فالأكبر يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهدىهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه). انتهى كلامه رَحْمَةً لِّلَّهِ^(١). وهو كلام مهم مع أنني اختصرت منه كثيراً، فمن أراد الاستزادة فليراجع مدارج السالكين في الموضع المشار إليه في الحاشية.

ونلاحظ في كلامه أنه لم يذكر النفاق الأصغر بصورة مستقلة، فلا بد من ذكره والإشارة إليه، ولكن قبل ذلك، أود أن نزداد تعرفاً على بعض صور النفاق الأكبر، لأنه في غاية الخطورة، وكان موجوداً على عهد النبي رَحْمَةً لِّلَّهِ، ولم ينته إلى اليوم، وسأذكر فيه نصيحتين من كلام شيخ ابن القاسم: أبي العباس ابن تيمية رَحْمَةً لِّلَّهِ، ثم أنتقل إلى بيان النفاق الأصغر.

النص الأول: قال ابن تيمية: (فمن النفاق ما هو أكبر، ويكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن

(١) مدارج السالكين (٦٠٧-٥٨٧/١) باختصار كثير.

أُبَيٌّ وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسول أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسْرَة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك: مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله، وهذا القدر كان موجوداً في زمن رسول الله ﷺ، وما زال بعده، بل هو أكثر منه على عهده^(١).

وتأمل قوله: المسْرَة بانخفاض دين الرسول، أو الاستباء بظهور دينه!

النص الثاني: قال ابن تيمية أيضاً: (فأما النفاق المحسن الذي لا ريب في كفر صاحبه، فإنه لا يرى وجوب تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر به، ولا وجوب طاعته فيما أمر به، وإن اعتقد مع ذلك أن الرسول عظيم القدر - علمًا وعملاً - وأنه يجوز تصدقه وطاعته لكنه يقول: إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبد واحداً، ويرى أنه تحصيل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعته، إما بطريق الفلسفة والصبو، أو بطريق التهود والنصر). انتهى^(٢).

وأما النفاق الأصغر فهو راجع إلى اختلاف الظاهر والباطن
في بعض الأعمال كصدق الحديث والوفاء بالوعد وتأدية الأمانة،

(١) مجموع الفتاوى (٤٣٤/٢٨)

(٢) الإيمان الأوسط (١٨٠)

كما ثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ»^(١)
 ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَثَ كَذَبٌ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا ائْتَمَنَ خَانَ»^(٢)
 وثبت عنه ﷺ أنه قال - كذلك -: «أربع من كن فيه كان منافقاً
 خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق
 حتى يدعها: إذا ائمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر،
 وإذا خاصم فجر»^(٢)

والمؤمن لا يمكن أن يداوم على كذب الحديث وخيانة
 الأمانة والغدر بالعهد، فلا يتهاون الإنسان مع نفسه في الوقوع في
 أفراد هذه الأعمال؛ كيلا ينتقل إلى المداومة عليها والجمع بينها
 فيكون منافقاً خالصاً كما قال النبي ﷺ.

الرياء والعمل لغير الله:

إن من علامات ضعف التعلق بالله، وقوه التعلق بغيره، أن
 يعمل المسلم أعمالاً هي في أصلها من العبادات، ولكنه يقوم بها
 لا ليرضي من أمر بها، وإنما ليكتسب مكانة عند الناس وسمعة،
 وهذا في غاية الخطورة.

والناس - على الحقيقة - لا ينفعون ولا يضرون؛ فلم التصنّع
 لهم؟

(١) البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩).

(٢) البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨)

والله هو الذي يملك قلوب الناس، وهو قادر على تحببك إليهم كلما أخلصت له أكثر، وقادر على تغييضك إليهم كلما صرفت نيتك عنه، فهو الغني الحميد سبحانه.

والعمل لغير الله له صورتان:

الأولى: أن يقصد غير الله بعمله ابتداءً وانتهاءً، فهذا رباء محض. وهو من صفات المنافقين الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسائلٍ يراوؤن الناس، فهم لا يصلون لله وإنما للناس، ولا شك أن هذا من الشرك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».

الثانية: أن يقصد الله سبحانه بعمله ولكن بالإشراك مع نية أخرى. فإن شاركه الرياء من أصل العمل، يعني من أوله وابتدائه، كأن يكون قصده: وجه الله وثناء الناس، فهذا العمل باطل. قال ابن رجب: (لا نعرف عن السلف في هذا خلافاً)^(۱) يعني في بطلان هذا العمل. وهو رباء وشرك.

وأما إذا كان قد أنشأ العمل لوجه الله، ثم طرأ على نية الرياء بعد النية الصالحة فدافعها ولم يجعلها تستقرّ، فهذه الحال لا تضرّ المؤمن ولا تُبطل العمل بغير خلاف كما نقل ابن رجب أيضاً^(۲)، ولا تؤثر على صاحبها من جهة الثواب والعقاب.

(۱) جامع العلوم والحكم (۸۲/۱)

(۲) جامع العلوم والحكم (۸۴/۱)

هذا وإن من أعظم ما يعين الإنسان على الإخلاص: معرفة الله حق المعرفة، والطمع في ثوابه، والخوف من عقابه، وعدم تعظيم الناس فوق مرتبهم -فإن هذا أصل عظيم من أصول المعاصي والذنوب.-

الخاتمة

إلى الجيل الصاعد:

للتذكرة أن عقيدة المسلم ليست نصوصاً تُحفظ، ولا أقوالاً يُجادل بها، وإنما هي إيمان وخشوع وإخبارات، وعمل وفاعلية وحياة، ويقين وطمأنينة ورضا.

وإلى طلاب العلم، والقائمين على العمل الدعوي والتربوي، والمشغلين بالدرس العقدي:

إن علينا أن نغرس أصول العقيدة والثوابت الكبرى في عقول الجيل، وأن نعتنی باللغة المقيّنة المبرهنة، وأن نحرص على تحقيق الأثر العقدي المرجو من علم العقيدة، ألا وهو الإيمان بالغيب والتسليم لله ورسوله والأنبياء لهما، وتحقيق العبودية لله توكلًا وإنابة واعتصاماً.

كما أن علينا أن ندرك طبيعة التحديات العقدية المعاصرة التي اقتلعت الجذور الإيمانية لدى كثير من أبناء الجيل الصاعد.

وهي تختلف كثيراً عن التحديات المرتبطة بالتراث العقدي الإسلامي، فإشكالات اليوم قد أدت إلى تفكيك الإنسان، وقطعت علاقته بالغيب، وفتّت أصوله وقيمه ومرجعياته الأخلاقية الكبرى، أو دعت في أقل أحوالها إلى أن تكون علاقة التدين البشري بالله شخصية في الإطار الفردي للإنسان مع عزله عن أي تأثير عام فضلاً عن أن تكون له الهيمنة والمرجعية الحقيقة.

ولذلك فإن فهم المستغلين بالدرس العقدي لاتجاهات العلمانية والليبرالية والإلحاد والمادية والعلمية والإنسانية ونحوها لا يقل أهمية عن فهمهم لأقوال المعتزلة والمرجئة والقدريّة والخوارج، بل الحاجة إلى فهم أقوال تلك الاتجاهات وأمسّ، والضرورة إلى نقضها أشد .. والله المستعان.

هذا؛ وأسائل المولى القدير، العزيز الغفور، أن يبارك ويقبل، وأن يغفر الزلل، ويکفر السيئات، والحمد لله رب العالمين، وصلّ اللهم على النبي الكريم محمد.

المؤلف

ليلة السابع من رمضان عام ١٤٤١ هـ

الموافق ٢٠٢٠ / ٤ / ٣٠

ALSAIYD998@GMAIL.COM